

تعليقاتُ

فَضِيلَةِ الشَّيْخِ صَالِحِ بنِ عبدِاللهِ بنِ حَمَدٍ العُصَيْمِيِّ

حفظه الله تعالى

على

بهجة الطُّلَب في آداب الطَّلَب

للشَّيْخِ صَالِحِ بنِ عبدِاللهِ بنِ حَمَدٍ العُصَيْمِيِّ

حفظه الله تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونيَّة (الأولىٰ)

الشيخ لم يراجع التفريغ

http://www.attafreegh.com/

بسم الله الرحمن الرحيم

السَّلامُ عليكمْ ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ..

الحمد لله الَّذي جعل للعلم أُصولًا، وسَهَّل بها إليه وُصولًا، وأشهد ألَّا إلٰه إلَّا الله وحدَه لَا شريك لهُ، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسوله صلَّىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه مَا بُيِّنَت أُصول العلومِ، وسَلَّم عليه وعليهم ما أُبْرِزَ المَنْطُوقُ منها والمفهومُ.

أمَّا بعدُ..

فَهٰذَا شَرْح (**الكتابِ الأوَّلِ**) مِنَ (**المُستَوىٰ الثَّاني**) مِنْ برنَامجِ (**أُصُولِ العلمِ**) في (**سنتِهِ الخامسةِ**)؛ سبعٍ وثلاثينَ وأربعمائةٍ وألفٍ، وَثمانيةٍ وثلاثينَ وأربعمائةٍ وَألفٍ. وهو كتابُ (**بَهْجَةُ الطُّلَب فِي آدَابِ الطَّلَب**).لمُصنِّفه صالحِ بنِ عبد اللهِ بنِ حمدٍ العصيميِّ.



قالَ النَّاظِمُ وفَّقـهُ اللهُ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْــــدُ للهِ لَـــهُ الإِحْكَــامُ ثُــمَّ الصَّــلَاةُ بَعْــدُ وَالسَّــلَامُ
عَلَــىٰ مُحَمَّـــدٍ رَسُـــولِ اللهِ وَآلِــهِ طُـــرًّا بِــلَا تَنَــاهِي
وَبَعْــدُ ذِي أُرْجُـــوزَةٌ جَـــدِيرَه بِـــالحِفْظِ وَالإِدْرَاكِ بِالبَصِــــيرَه
لِلُّؤْلُـــؤِي تُعْــزَىٰ أَوِ المَــأْمُونِ وَنَصُّـــهَا المَجْلِـــيُّ لِلْعُيُـــونِ

ابتدأ النَّاظِمُ - وفَّقه الله - منظومتَهُ بالبسملةِ، ثمَّ ثَنَّىٰ بالحمدلـةِ، ثـم ثَلَّـثَ بالصَّـلاة والسَّـلام علـىٰ رسولِ الله ﷺ مَقرونةً بالصَّلاة والسَّلام علىٰ آلِهِ.

وهؤلاء الثَّلاث من آدابِ التَّصنيفِ اتِّفاقًا؛ فإنَّ من مُستحسنات الآدابِ في ابتداءِ التَّصـانيف أن يُقَـدَّم في صَدرِها البسملةُ، ثمَّ يُثَنَّىٰ بالحمدلَة، ثمَّ يُثَلَّثَ بالصَّـلاة والسَّـلام علـىٰ النَّبـيِّ وعلـىٰ آلـه ﷺ وَعلـيهِمْ أجمعينَ.

وأكَّد النَّاظِمُ الصَّلاةَ عَلَىٰ الآلِ بقولِه: (طُرًّا)؛ أَيْ: جميعًا، تحقيقًا لشُمولِها آلَ النَّبيِّ كُلِّهم، وهـم: بنـو هاشمٍ القُرَشيُّونَ وأزواج النَّبيِّ ﷺ.

فاسْمُ (آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ) يَجْمَعُ شَيْئَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: مَنْ نَسَلَ مِنْ ذُرِّيَّةِ هَاشِمٍ.

وَالآخَرُ: أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَوْ كُنَّ مِنْ غَيْرِ بَنِي هَاشِمٍ أَوْ قُرَيْشٍ.

وَالمَخْصُوصُونَ بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ مِنَ الآلِ: هُمُ المُسْلِمُونَ مِنْهُمْ.

وجَعَل النَّاظمُ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ علىٰ النَّبِيِّ ﷺ وعلىٰ آلِه ممدودةً غيرَ محدودةٍ لقولـه: (بِـلَا تَنَـاهِي)؛ أيْ: بلا حَدٍّ تنتهي إليه.

والمَطلُوب شرعًا: الإِكثَارُ من الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ علىٰ النَّبيِّ ﷺ وعَلَىٰ آلِهِ.

وَالمُرَادُ بِـ(الإِكْثَارِ): غَلَبَةُ الأَمْرِ عَلَىٰ العَبْدِ حَتَّىٰ يَتَمَيَّزَ بِهِ، فَالمُكثِرُ من الصَّـلَاةِ وَالسَّـلَامِ علـىٰ النَّبـيِّ ﷺ وعلىٰ آلِه هوَ الَّذِي يغلبُ عَلَىٰ لِسَانِهِ ذِكْرُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عليه وعليهِمْ.



ورُوِيَتْ أَحَادِيثُ فِي جَعْلِ ذَٰلِكَ عَشْرًا، أَوْ مِائَةً، أَوْ خَمْسِينَ، أَوْ أَلْفًا؛ وَكُلُّ تِلْكَ الأحاديثِ لَا يَثْبُتُ مِنْهَا شَيْءٌ، فَالأَحَادِيثُ الوَارْدَةُ فِي تَقْدِيرِ عَدَدٍ يُصَلَّىٰ وَيُسَلَّمُ بِهِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ ضِعَافٌ لَا يَصِحُّ مِنْهَا شَيْءٌ.

واسم (الإكثارِ) يحصل بغَلَبتها علىٰ لسان العبدِ؛

فمثلاً: المأمورُ به من الإكثارِ من الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ علىٰ النَّبيِّ ﷺ ليلةَ الجمعةِ ويومَهَا لا يحصُل بِعَدَدٍ مُعَيَّنٍ بأن تُصلِّيَ عشرًا أو خمسينَ أو مائةً أو ألفًا، وإنَّما يحصلُ بِأَنْ تَغْلِبَ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ علىٰ لسانِك في أحوالِكَ في تلك اللَّيلةِ ويومَهَا.

فلو قُدِّرَ أَنَّ أحَدًا صَلَّىٰ وسَلَّم قطعةً من اليومِ جَلَس فيهَا فصلَّىٰ وسلَّم خَمسينَ أو مائةً، فاسمُ (الإكثَارِ) لا يتحقَّق عليهِ، وإنَّما يتحقَّق بِأَنْ تَغْلِبَ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ علىٰ لسانِه في جميعِ ذَٰلِكَ اليوم وليلته.

وَمِنْ حِسَانِ المَأْثُورَاتِ: مَا رَوَاهُ قَوَّامُ السُّنَّةِ الأَصْبَهَانِيُّ فِي كِتَابِ «فَضَائِلِ الأَعْمَالِ»، عَنِ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ: «عَلَامَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ: كَثْرَةُ الصَّلَاةِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ».

ثمَّ ذَكَر أنَّ المسوقَ هنَا من نَظْمه حقيقٌ بأمريْنِ، هو جديرٌ بهما:

أحدهما: الحفظُ للمَبَانِي.

والآخر: الفهمُ للمعانِي.

فِي قولِهِ:

وَبَعْـــدُ ذِي أُرْجُـــوزَةٌ جَـــدِيرَه ... بِـــالحِفْظِ وَالإِدْرَاكِ بِالبَصِـــيرَه

فقولُه: (بِالحِفْظِ)؛ إشارةٌ إلىٰ حِفْظ المباني.

وقوله: (وَالإِدْرَاكِ بِالبَصِيرَه)؛ إشارةٌ إِلَىٰ فَهْمِ المعانِي؛

لِأَنَّ الإِدْرَاكَ حَقِيقَتُهُ: الفَهْمُ.

وَآلَتُهُ: البَصِيرَةُ القَلْبِيَّةُ.

فمَنْ وَجَّه بصيرتَهُ القلبيَّة في وَعْيِ شيءٍ فَهِمَهُ وأَدْرَكَهُ.

وَهٰذِهِ المنظومةُ الَّتِي اصْطَفَاهَا ناظمُهَا لتكونَ رأسَ ما يُحْفَظُ في آدابِ الطَّلَب مِمَّا شُهِرَ بعضُ أبياتِهَا مُرْسَلًا، فَسَتَعلم فِي مَا يُستقبَل أنَّ هٰذِهِ المنظومةَ ممزوجةٌ بينَ نَظْم ناظمِهَا - الَّذي جَعَلَ لَهَا مُقَدِّمَةً



وخاتمةً - مَعَ أبياتٍ تُنسَب لغيرِهِ - هيَ المبدوءة بقوله: (اعْلَمْ بِأَنَّ العِلْـمَ بِـالتَّعَلُّمِ) إلَـىٰ تمـام المنظومَـةِ سوىٰ البيتِ الأخيرِ-.

فَمَا بَيْنَ المُقَدِّمَةِ وَالخَاتِمَةِ اخْتُلِفَ فِي قَائِلِهِ، فَعُزِيَ إِلَىٰ رَجُلَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: اللُّؤْلُؤِيُّ؛ وَهِيَ نِسْبَةُ جَمَاعَةٍ، أَشْهَرُهُمْ: الحَسَنُ بْنُ زِيَادٍ اللُّؤْلُؤِيُّ، مِنْ فُقَهَاءِ أَصْـحَابِ أَبِـي حَنِيفَةَ النُّعْمَانِ.

وَالآخَرُ: المَأْمُونُ؛ وَهُوَ لَقَبُ الخَلِيفَةِ العَبَّاسِيِّ عَبْدِ اللهِ بْنِ هَارُونَ القُرَشِيِّ المُطَّلِبِيِّ.

فَعُزِيَتْ إِلَىٰ هٰذَا، وعُزِيَتْ إِلَىٰ هٰذَا، وَلَمْ يُعْلَمْ قَائِلُهَا عَلَىٰ وَجْهِ التَّحْقِيقِ.

وِلِصحَّةِ معانيهَا، وَلَطَافَةِ مبانيها؛ تَلَقَّاها أهلُ العلمِ بالقَبولِ، فَتَقَادَمَ ذِكْرُهمْ لهَا، وَأَقْـدَمُ مَـنْ ذَكَرَهَـا - فيمَا يُعْلَم - هُوَ: أَبُو عُمَرَ بْنِ عَبْدِ البَرِّ فِي «جَامِعِ بَيَانِ العِلْمِ وَفَضْـلِهِ»، وَعَـدَّهَا أَحْسَـنَ مَـا قِيـلَ فِـي آدَابِ الطَّلَبِ.

وقولُه: (وَنَصُّهَا المَجْلِيُّ لِلْعُيُونِ) مَعَ مَا بَعدَهُ؛ يَدُلُّ علىٰ أنَّ هٰذِهِ الأبياتَ الأربعةَ الأُولَـىٰ ليسـتْ مـن النَّظْمِ القديمِ الَّذي ذَكَره أبو عمر بن عبد البر وغيره؛ فَالأَبياتُ الأربعةُ الَّتي صُدِّرَتْ بهَا المنظومةُ هي مـن نَظْمِي، ثمَّ خُتِمَت ببيتٍ جُعِل خَتْمًا لهَا.

فإنَّ العلم خَاصَّةً وَمَا يَنْفَعُ عَامَّةً إِذَا جُعِلَ بَيْنَ مُقَدِّمةٍ وَخَاتِمَةٍ بَانَ نَفْعُهُ، وَاعْتَبِرْ هٰذَا فِـي إِنْـزَالِ القُـرْآنِ مُنَجَّمًا فِي سُوَرٍ- أَيْ: مُفَرَّقًا فِي نَسَقِ سُوَرٍ-، كُلُّ سُورَةٍ لَهَا مَطْلَعٌ هُوَ فَاتِحَتُها، وَلَهَا مَقْطَـعٌ هُـوَ خَاتِمَتُهَـا؛ فإنَّ الشَّيْءَ إِذَا جُمِعَ بَيْنَ طَرَفَيْنِ وُعِيَ وَأُدْرِكَ، ومنهُ: الشِّعْر المُرسَلُ، فإنَّه إذَا أُحِيطَ بمَا يـدلُّ عليـهِ ويُرْشِـدُ إليه كَمُلَت منفعتُه، فهو الَّذي حَذَا جامعَ هٰذِهِ النُّبْذَةِ في هٰذِهِ الأوراقِ إلىٰ تَقديمِ أبياتٍ بـينَ يَـدَيْهَا وخَتْمِهـا ببيتٍ واحدٍ.

وسمَّىٰ ذَٰلِكَ كُلَّهُ: «بَهْجَةَ الطَّلَب في آداب الطَّلب»؛

وَالطُّلَبُ: جَمْعُ طُلْبَةٍ؛ وَهِيَ: السَّفْرَةُ البَعِيدَةُ.

فإنَّ منْ شعار العلمِ: الرِّحلَةُ فيهِ.

ومن مباهجِ الارتحَالِ: التَّزَيُّنُ بالآداب.

فمَنْ ارتحلَ في العلم مُتزَيِّنًا بالأدبِ أدرك بُغْيَتَه.



وجَعَل النَّاظم هٰذَا الاسمَ لهَا مختومًا بقوله: (فِي آدَابِ الطَّلَبِ)؛ لِأَنَّ آخِرَ شَطْرٍ منها هو قَوْلُ ناظمها: (فَافْهَمْ هَدَاكَ اللهُ آدَابَ الطَّلَبْ).

قال النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

اعْلَـــمْ بِـــأَنَّ العِلْـــمَ بِـــالتَّعَلُّمِ وَالحِفْـــظِ وَالإِتْقَـــانِ وَالـــتَّفَهُّمِ

من الأصول المُعِينةِ علىٰ حيازةِ العلمِ وجَمْعِهِ: التَّحلِّي بشِعارِ أهْلِ العلم في قولهِمْ: (العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ)؛ أيْ: بطَلَبِه وابتغائِه، فإنَّ أحَدَنَا لَا يُولَد عالمًا، وإنَّما يجمع العلمَ إلـىٰ نفسِـه بطَلَبِـه وإحصـائِه والتماسِـه، وسَعْيُهُ في ذَٰلِكَ يُسَمَّىٰ (تَعَلُّمـًا).

فَإِنَّ (التَّفَعُّل) فِي كَلَامِ العَـرَبِ: اسْـمٌ لِمَـا يُبْـذَلُ فِيـهِ كُلْفَـةٌ، كـَ(التَّعَلُّمِ، وَالـتَّحَلُّمِ، وَالـتَّكَلُّمِ)، فَـإِنَّ الاتِّصاف بالعلمِ والحلمِ وحُسْنِ المنطقِ والكلامِ لا يُحصَّل دُفْعةً واحدةً، وإنَّما يُكابِد المرءُ مشـقَّةً حتَّـىٰ يَصِلُ إِلَىٰ مَطْلُوبُه منْ هٰذِهِ المذكوراتِ وغيرِهَا.

وَهٰذِهِ الجملةُ (العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ)؛ رُوِيَتْ فِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا يَصِحُّ مِـنْ طُرُقِـهِ شَـيْءٌ، وَثَبَتَ مَوْقُوفًا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَا يُولَدُ عَالِمًا، إِنَّمَـا العِلْـمُ بِـالتَّعَلُّمِ». رَوَاهُ أَحْمَـدُ فِي كِتَابِ «الزُّهْدِ»، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

وَقول النَّاظم: (وَالحِفْظِ وَالإِتْقَانِ وَالـتَّفَهُّمِ)؛ مِـنْ عَطْـفِ الخـاصِّ علـىٰ العـامِّ؛ فالمـذكوراتُ مـنْ مسالِكِ التعلُّم؛

فَحِيَازة العلم وجَمْعه تُحَصَّل بسلوكِ سُبُل مُوصِلةٍ إليهِ، من جُملَتِها: الحِفْظُ، والإتقانُ، والتَّفهُّمُ.

والمراد **بالإِتْقَانِ**: الإِحْكَامُ.

ومُتعلَّقه علىٰ الحقِيقةِ: التَّحَفُّظُ وَالتَّفَهُّمُ؛ بأن يكونَ الحفظُ مُتقنًا والفَهـم مُتقنًـا، فمـدارُ العلـمِ عَلـىٰ التَّحَفُّظِ وَالتَّفَهُّم.

فَإِنَّ قُوَّةَ العِلْمِ مَبْنِيَّةٌ عَلَىٰ أَصْلَيْنِ: الحِفْظُ، وَالفَهْمُ. ذَكَرَهُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ الحَفِيدُ، وَتُوجَدُ فِي كَلَامِ غَيْرِهِ مِـنْ قُدَمَاءِ فَلَاسِفَةِ اليُونَانِ.

فمَنْ أراد أن يُحَصِّل العلم فإنَّه يَنَالُه بالحرصِ علَىٰ حِفْظِ ما يريدُه منهُ حِفْظًـا مُحكَمًـا مُتقَنًـا، وَيَقْـرِنُ ذَٰلِكَ بتَفَهُّم معانيه، فإنَّه لا ينْبُلُ في العلمِ بالغًا الغايةَ منه إلَّا مَنْ ارتوىٰ من هاتين السَّابِلَتَيْنِ أكملَ الارتـواءِ وأقوَاهُ.



ومَنْ ظَنَّ أنَّه يَنالُ العلمَ بواحدةٍ من هاتينِ القُوَّتَينِ دُونَ الأخْرَىٰ فهوَ لَا يعرفُ حقيقةَ العلمِ، ومَنْ لَمْ يَسِر فيهمَا سَيْرَ أهلِ العلمِ مِنْ ملاحظةِ الحفظِ في زمنِهِ ووقتِهِ، وملاحظةِ الفهم في زمنِهِ ووقتِهِ أَضَرَّتْ إِحْدَىٰ القُوَّتَيْنِ بِالأُخْرَىٰ.

وَقَدْ ذَكَرَ الوَشَلِيُّ فِي «الثَّنَاءِ الحَسَنِ» عَنْ بَعْضِ شُرَّاحِ «الرَّحَبِيَّة» - وَلَمْ يُسَمِّهِ - أَنَّ مَنْ لَمْ يَرْعَ الحِفْظَ وَالفَهْمَ كَمَا يَنْبَغِي أَضَرَّتْ إِحْدَىٰ القُوَّتَيْنِ بِالأُخْرَىٰ.

وَهٰذَا أَمْرٌ ظاهرٌ في النَّاس؛ فإنَّ من النَّاس مَنْ يشتغِلُ بالحفظِ في غيرِ أوانِه وزمانِه تقديمًا وتأخيرًا، اختيارًا واصطفَاءً، فيحصلُ له حِفْظٌ كثيرٌ، ويَثقُل فَهْمُه؛ لأنَّه لم يَقْرِنْهُ بالحال الَّتي ينبغِي أن يكونَ عليهَا منَ الفهمِ، ويُقابلُه قومٌ آخَرُون يُقَعْقِعُونَ بِشِنْشِنَةِ الفهم فقط، فتجدُهم يُرسِلونَ خيالاتِهم في تَفَهُّم معانِي ما يريدونَ، فيُثقلونَ علَىٰ أذهانِهم؛ لأنَّهم لا يستمدُّون تحقيقَ تلكَ المعانِي من مخزونٍ محفوظٍ، فيقعونَ في صحراءَ بَلْقَع، يَضِيعُونَ فيها في تَيْهٍ.

فمَنْ أراد أن يَتَرَقَّىٰ في العلم وينالَه ويحصلُ له ما ذَكَره جماعةٌ من السَّلف: (العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ)؛ فإنَّه ينبغي أن يُلاحِظ الحفظ والفَهْمَ سَيْراً فيهِمَا بجادَّةِ أهل العلمِ، ممَّا يُرَقِّيه فيه أهلُ العلمِ العارفُونَ بِهِ، ولن تُبْلَغ الغايةُ إلَّا بالسَّير وَفْقَ هٰذِهِ السَّابِلَةِ، فلا تَتَعَنَّ.

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَالعِلْـــمُ قَـــدْ يُرْزَقُـــهُ الصَّـــغِيرُ فِـــي سِـــنِّهِ وَيُحْــرَمُ الكَبِيـــرُ

فَإِنَّمَـــا المَـــرْءُ بِأَصْـــغَرَيْهِ لَـــيْسَ بِرِجْلَيْـــهِ وَلَا يَدَيْـــهِ

لِسَـــانِهِ وَقَلْبِـــهِ المُرَكَّـــبْ فِـــي صَـدْرِهِ وَذَاكَ خَلْـقٌ عَجَّـبْ

لمَّا كان التَّعلُّم سبيلًا يُنال به العلمُ - كمَا ذَكَر النَّاظم فيمَا سلَفَ -؛ بَيَّن هنَا أنَّ العلمَ لَا يتوقَّف حصولُه علىٰ عُمُرٍ دونَ عُمُرٍ، فيُدركُه امرؤٌ فِي سِنٍّ وَلا يُدركه آخَرُ فِي سِنٍّ أُخْرَىٰ، بلِ الأمرُ كمَا ذَكَر فِي قولِهِ:

وَالعِلْـــمُ قَـــدْ يُرْزَقُـــهُ الصَّـــغِيرُ فِـــي سِـــنِّهِ وَيُحْــرَمُ الكَبِيـــرُ

فرُبَّما يُوَفَّق الصَّغير إلىٰ العلم ويُحْرَمه الكبيرُ، بحسَب مَا يتهيَّأُ لهُ من العونِ عليهِ، فيترشَّح للعلم حِفْظًا وفَهْمًا مع مبتدإ عُمُرِه، ويحصُل له من الظَّفَرِ بمحفوظٍ واسعٍ ومفهومٍ نافعٍ، فيرجعُ عليه ذَٰلِكَ بحُسْن رزقِهِ في العلْم.

وربَّما يقابلُهُ مَنْ هُوَ متقَدِّمٌ عليهِ في السِّنِّ، لٰكِنْ لَم يُصِبْ من العلم شيئًا؛ لتَرْكِه الاشتغالَ به، فتقدَّم الصَّغير علَىٰ الكبيرِ لاشتغالِ الصَّغيرِ بهِ فِي المبادئِ.

وإذا اشتغلَ الكبيرُ بالعلمِ فإنَّه يُمكنُه أن يُدركَهُ إذا تَجَرَّدَ منَ الشَّواغلِ والعوائقِ والقواطعِ، قَالَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «كِتَابِ العِلْمِ»: «وتَعَلَّمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ كِبَارًا». انتهىٰ كلامه.

فالتَّقدُّمُ في السِّنِّ لا يمنَع نَيْلَ العلم حِفْظًا ولا فَهْمًا، وَلٰكِنَّ أهلَ العلمِ لَهَجُوا بالمبادرةِ إلَىٰ تحصيلِ العلم في مبتدإِ العُمُر لِقِلَّةِ الشَّواغل وقوَّة الدَّاعِي إلىٰ طَلَب العلم في النَّفس.

فمَنْ تمكَّن من كبار السِّنِّ من تخليصِ نفسِهِ منَ القَوَاطِعِ المُشغِلَة وَالعَوائقِ المانعةِ من العلمِ وسَارَ فيه سَيْرًا حسنًا فإنَّه يُدرك منه بُغيتَه.

ومَحلُّ العِلْم من العبد: قَلْبُهُ.

وآلَةُ بيانِ العلم: لسانُهُ.

فَالقَلْبُ وِعَاءُ العِلْمِ، وَاللِّسَانُ مِغْرَافٌ يَنْزَعُ منه، وَلهٰذَا قال النَّاظم:



فَإِنَّمَـــا المَـــرْءُ بِأَصْـــغَرَيْهِ لَـــيْسَ بِرِجْلَيْـــهِ وَلَا يَدَيْـــهِ
لِسَـــانِهِ وَقَلْبِـــهِ المُرَكَّـــبْ فِـــي صَـــدْرِهِ وَذَاكَ خَلْـــقٌ عَجَّـــبْ

وسُمِّيَ القَلبُ واللِّسانُ: (الأَصْغَرَانِ)؛ لِضَآلَةِ حَجْمِهِمَا، وَصِغَرِ قَدْرِهِمَا مِنَ البَدَنِ، فَهُمَا بَضْعَتَانِ صَغِيرَتَانِ مِنْ بَدَنِ الإِنْسَانِ.

وقولُه: (المَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ)، مَثَلٌ سَيَّارٌ؛ مَعْنَاهُ: أَنَّ المَرْءَ يَعْلُو الأُمُورَ وَيَضْبِطُهَا بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ. ذَكَرَهُ الزَّبِيدِيُّ فِي «تَاجِ العَرُوسِ».

وقولُه: (وَذَاكَ خَلْقٌ عَجَّبْ)؛ أيْ: وقوعُ تلكَ الحالِ منَ الإنسانِ خَلْقٌ عَجِيبٌ.

فالجثَّةُ القائمةُ من لحمٍ وبَدَنٍ يَكمُلُ أَمْرُها أو ينقصُ قَدْرُهَا بالنَّظرِ إلىٰ بَضعتينِ صَغيرتينِ مِنْهَا، وَهُمَا: القَلْبُ واللِّسَانُ، وَهٰذَا تَرْكِيبٌ عَجِيبٌ بَدِيعٌ؛ فَإِنَّ الجَارِي فِي حالِ الخَلْقِ: أن يكونَ الأكبَرُ مُتحكِّمًا فِي الأصغرِ، وقُلِبَ هٰذَا فِي خِلْقة أحدِنَا؛ فأصْغَرَاهُ مُتحكِّمان فيهِ، فإنَّ تمامَ دينِ الإنسانِ وكَمَالَ عقلِهِ وحُسْنَ حالِه يرجعانِ إِلَىٰ قلبِهِ ولسانِه معَ ضَآلَةِ حجْمِهِمَا وَصِغَرِ قَدْرِهِمَا.

وهٰذَا يدلُّ عَلَىٰ عظمة الخالقِ ﷻ؛ إِذْ جعل الإنسانَ علىٰ هٰذِهِ الصُّورة البديعةِ العجيبةِ الَّتي رُدَّ فيهَا أَمْرُه كلُّه إِلَىٰ قلبِهِ ولسانِهِ.

وتحقيقُ الأمر: أنَّ المَرْءَ يُرَدُّ فِي بَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ إِلَىٰ قَلْبِهِ.

وفيهِ: حديثُ النُّعْمَانْ بن بَشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ».

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّة الحَفِيدُ: «القَلْبُ مَلِكُ البَدَنِ، وَالأَعْضَاءُ جُنُودُهُ، فَإِذَا طَابَ المَلِكُ طَابَتْ جُنُودُهُ، وَإِذَا خَبُثَ المَلِكُ خَبُثَتْ جُنُودُهُ».

وإنَّما جُعِل اللِّسان عليه حِجابًا، فَالقَلْبُ مَلِكُ بدنِك، ولسانُكَ حاجِبُه، فهوَ يغْرِفُ منهُ وَيَنْزَع عنه، فإذا طابَ المَلِكُ وكانَ صالحًا فإنَّ الحَاجبَ (الوَزِيرَ دونَهُ) يَكونُ صَالحًا طيِّبًا، وَإِذَا خَبُثَ وفَسُد ظَهَرَ الخُبْثُ والفَسَادُ علىٰ اللِّسان وبقيَّةِ الأركانِ.



قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَالعِلْـــمُ بِـــالفَهْمِ وَبِالْمُـــذَاكَرَهْ وَالـــدَّرْسِ وَالفِكْـــرَةِ وَالمُنَـــاظَرَهْ

ذكر النَّاظِمُ فِي هٰذَا البيتِ خمسةَ مواردَ من المواردِ الَّتي تُوصِلُ العلمَ إلىٰ النَّفس، وتُذيقُ القلبَ حلاوتَه:

فَالمَوْرِدُ الأَوَّلُ: الفَهْمُ؛ وَهُوَ: إِدْرَاكُ المَعَانِي المُرَادَة فِي الكَلَامِ.

وَالنَّافِعُ مِنَ الفَهْمِ هُوَ: المُتَلَقَّىٰ عَنِ الرَّاسِخِ فِي العِلْمِ.

فإن مَنْ رَسَخ عِلمه صارتِ المعانِي الَّتي يُبديها صحيحةً، فَانتَفَعَ بهَا مُتلقِّيهَا، وَقوِيَتْ مَلكَةُ فَهْمِهِ، وإذَا كانَ مُزَعْزَعَ القَدَمِ في العلمِ، غير مُتمكِّنٍ منه بَدَتْ تلكَ المعاني مُشوَّشةً، فتَلتبِسُ فِي نَفْس المتلَقِّي وتورِثُه عُسْر الفهمِ.

وَالمَوْرِدُ الثَّانِي: المُذَاكَرَةُ؛ وَهِيَ: مُرَاجَعَةُ مُتَلَقِّي العِلْمِ عِلْمَهُ مَعَ آخَرَ، سُمِّيتْ مُذَاكَرَةً لِأَنَّهَا مُفَاعَلَةٌ بالذِّكْر بينَ اثْنَين فَصَاعِدًا، فيجلسُ أحدُهُمَا إلَىٰ الآخرِ ويتَجَاذَبَان القَوْلَ مُعِيدَيْنِ مَا سَبَقَ تَلَقِّيهِ عَنْ مُعَلِّمِهِمَا.

فاسْمُ (المُذَاكَرَةِ) في كلامِ العرب يقع بين اثْنَين فأكثرَ.

والدَّارِجُ عَلَىٰ ألسنَةِ النَّاسِ ممَّا يسمُّونَهُ (مُذَاكَرَةً) اسمهُ: (مُطَالَعَةٌ)؛ فَإِنَّ الَّذي ينظرُ في الكتبِ وحدَهُ يُسمَّىٰ مُطَالِعًا، سواءً كان مُتَحفِّظًا أم مُتفهِّمًا، واسم (المُذَاكَرَةِ) لا يكونُ إلا بين اثْنَين فَصَاعِدًا يتَجَاذَبَانِ ذِكْرَ العلمِ بينهمَا.

وَالنَّافِعُ مِنَ المُذَاكَرَةِ هِيَ: الوَاقِعَةُ مَعَ القَرِينِ الجَادِّ، الطَّامِحِ إِلَىٰ مَعَالِي الأُمُورِ.

وَالمَوْرِدُ الثَّالِثُ: الدَّرْسُ؛ وَهُوَ: تكْرَارُ العِلْمِ علَىٰ النَّفْسِ، وَإِعَادَتُهُ عَلَيْهَا.

فإنَّ اسمَ (الدَّرْسِ) مأخوذٌ من العَوْدِ والتَّكْرَارِ.

فإعادةُ العلم بعد حِفْظِه أو بعدَ فَهْمه يُسمَّىٰ (دَرْسًا).

فمَنْ جَلَسَ بَعْدَ الفجرِ فحَفِظَ هٰذِهِ الأبيات حتَّىٰ أحْكَمَهَا، فلمَّا أرسَلَ اللَّيْلُ سِتَارَهُ، وبَزَغَتِ النُّجُومُ، وهَدَأَ صوتُ النَّاسِ؛ قَامَ فأخَذَ يُكرِّر هٰذِهِ الأبيات، فِفعْلُهُ يُسمَّىٰ (دَرْسًا)، وَكَذَا لَوْ كَان مُتعلِّقًا بمَفهومٍ



تلقَّاه، كَأَنْ يكون قَرَأ ذٰلِكَ المَحفوظَ عَلَىٰ شَيخٍ بَيَّنَ له معانيه ثمُّ رجَع إلىٰ دارِه، فَإِنَّه إذا أعاد تَـذَكُّرَ تلـك المعاني الَّتي تلقَّاها وأَمَرَّها علىٰ نَفْسِه يُسمَّىٰ هٰذَا (دَرْسًا).

والنَّافِعُ مِنَ الدَّرْسِ: هُوَ الكَائِنُ فِي وَقْتِ النَّشَاطِ وَالقُوَّةِ.

فمَنْ أرادَ أن ينتفعَ بدَرْسِه مُعيدًا له فإنَّه ينبغي أن يتخيَّر أوقاتَ نَشَاطه وقوَّتِهِ.

وَالمَوْرِدُ الرَّابِعُ: الفِكْرَةُ؛ وَهِي تَحْقِيقُ النَّظَرِ فِي مَا يُبْتَغَىٰ مِنَ العِلْمِ بِإِمْرَارِهِ عَلَىٰ القَلْبِ مَرَّةً بَعْـدَ مَـرَّةٍ، وَاسْتِخْرَاجُ مَا تَحْتَ المَبْنَىٰ مِنَ المَعْنَىٰ.

فإنَّ مَبَانِي الكَلَامِ خَزَائِنُ المَعَانِي؛ فتحقيقُ النَّظَر فيهَا وإجالتُه تُسمَّىٰ (فِكْرًا)، بـأَنْ تَتطلَّـب الوصـولَ إِلَىٰ مقصودٍ تُقَلِّب نَظَرك فيه حتَّىٰ تُدرِك معنًىٰ تلتمسُهُ في ما تُطلِق الفِكْرَ فيه.

والنَّافِعُ مِنَ الفِكْرِ فِي العِلْمِ: هُوَ مَا تَحَرَّكَ بِهِ الذِّهْنُ بَعْدَ تَمَامِ الفَهْـمِ وَاكْتِمَـالِ آلَـةِ العِلْـمِ؛ فَـالفِكْرُ في العلمِ للوصولِ إلىٰ المعانِي الشَّريفةِ مَحَلُّه في ما يُستَقْبَل مـنْ عُمُـر مُتَلقِّيـه، فـلَا يَحسُـنُ الهُجُـوم عليـه في المَبَادِي، أو عند المتوسِّطينَ، أو عندَ المنتهينَ قبلَ امتلائِهمْ منَ العلمِ.

فإنَّ الفِكْرَ في العلمِ لا تَحْصُل منفعتُه إلَّا بعدَ تمَام فَهْم معانِيه، فإذا تَمَّ فَهْمُ المَعَانِي، ثـمَّ اكتملـتْ آلـة العلمِ من تَلَقِّي فنونه كانَ فِكْرُ المرءِ فيه حينئذٍ كمالًا يُورِث كمالًا، وَإِن كان قبل ذلك كـان خَبَـالًا يُـورِث خَبَالًا.

فمُلتمسُ العلمِ لا ينبغِي له أن يُجهِدَ ذِهْنه بالفِكْرِ في الوصولِ إلىٰ المعانِي قبلَ تَمَـامِ فَهْمِـهِ واكتمَـالِ آلتِهِ، لأَنَّه يُشغِلُ نَفْسَه بمَا يَشُقُّ عليهَا؛ كَمَنْ يحمِل ثِقَلًا لَا يَقدِرُ بَدَنُه عَلَـىٰ رَفْعِـه، وَربَّمَـا أوردَهُ المَهَالِـكَ؛ فهو يُجرِي خاطِرَهُ مُنقدحًا في أمورٍ لَا يَعِي تمامَهَا.

فإنَّ ممَّا يسمعُهُ المرءُ فِي تعليلِ الأَحَادِيثِ - مَثَلًا - أشياءَ فَكَّر فيهَا المتكلِّمون بهـا فأرسلُوهَا علـىٰ عَوَاهِنِهَا قَبْلَ تمام الفهمِ واكتمال آلةِ العلمِ، فصَارَ تَعليلُهم ضُحْكَةً عِندَ العارفين بالعلمِ؛

فإنِّي سمعتُ رجُلًا يُعَلِّل حديثًا فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأُمِّ سَـلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَفِسْـتِ؟» - لَمَّـا انْسَلَّتْ مِنْ فِرَاشِهِ -.

فَقَالَ: هٰذَا الحَدِيثُ لَهُ عِلَّةٌ، وَهِيَ: أَنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ لَمْ تَضَعْ إِحْدَاهُنَّ مَوْلُودًا، وَالنِّفَـاسُ دَمٌ يَكُـونُ بَعْدَ وِلَادَةٍ.



وَهٰذَا المَعْنَىٰ الَّذِي عَلَّلَ بِهِ مَعْنًىٰ سَاقِطٌ؛ لِأَنَّ أَصْلَ النِّفَاسِ: حُصُولُ التَّنْفِيسِ، وَهُوَ لِلْمَرْأَةِ بِدَمٍ، فَيُسَمَّىٰ الحَيْضُ أَيْضًا نِفَاسًا، وَهُوَ الَّذِي أَرَادَهُ النَّبِيَّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «أَنَفِسْتِ؟».

وَهٰذَا الأمرُ الَّذي ذَكَرتُ خطورته صارَ شائعًا في الناس، فِي ما فُتِنُوا بِهِ من دَعْوَىٰ سهولَةِ الوُصُولِ إلىٰ المعلومةِ؛ فظنُّوا أنَّ سهولَةَ الوُصُولِ إلىٰ المعلومةِ تُورِثُهُم قُدرةً علىٰ نُفُوذِ أفكارِهِم في معانِي العلم، وأنَّهم يُدركونَ من حقائِقِه أشياءَ تجْري بهَا خَوَاطِرُهُمْ، كالمسموعِ اليومَ في كثيرٍ ممَّا يُنْسَبُ إِلَىٰ تَدَبُّرِ القرآن، فإنَّه محضُ جَرَيَان الخَوَاطِرِ، وربَّما اشتَمَلَ عَلَىٰ مَعَانٍ فَاسِدَةٍ في الشَّرِيعةِ.

والمَقْصُودُ: أنَّ مُريدَ النَّجاة عند الله، الرَّاغبِ في حصولِ كمالِ العلمِ؛ ينبغِي أن يعرفَ أنَّ الفِكْرَ في العلم مَرتبةٌ تُدرَكُ بَعْدَ تَمَامِ الفَهْمِ وَاكْتِمَالِ آلَةِ العِلْمِ.

وَالمَوْرِدُ الخَامِسُ: المُنَاظَرَةُ؛ وَهِيَ: البَحْثُ فِي العِلْمِ مَعَ غَيْرِهِ لِنُصْرَةِ قَوْلٍ دُونَ آخَرَ، وَإِقَامَةُ الحُجَّةِ عَلَيْهِ.

وَالنَّافِعُ مِنَ المُنَاظَرَةِ: مَا كَانَ مَعَ ذِي عِلْمٍ لِإِرَادَةِ الحَقِّ.

فَالمُنَاظَرَةُ النَّافِعَةُ تَجْمَعُ وَصْفَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: وُقُوعُهَا بَيْنَ مُتَّصِفَيْنِ بِالعِلْمِ الكَامِلِ؛ إِمَّا فِي نَفْسَيْهِمَا وَإِمَّا فِي تِلْكَ المَسْأَلَةِ بِعَيْنِهَا.

وَالآخَرُ: أَنْ يَكُونَ مُرَادُ كُلٍّ مِنْهُمَا الوُصُولُ إِلَىٰ الحَقِّ.



قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

فَــرُبَّ إِنْسَــانٍ يَنَــالُ الحِفْظَــا ... ويُــورِدُ الــنَّصَّ وَيَحْكِــي اللَّفْظَــا

وَمَــا لَــهُ فِــي غَيْــرِهِ نَصِــيبُ ... مِمَّــا حَــوَاهُ العَــالِمُ الأَدِيــبُ

وَرُبَّ ذِي حِــرْصٍ شَــدِيدِ الحُــبِّ ... لِلْعِلْــمِ وَالــذِّكْرِ بَلِيــدِ القَلْــبِ

مُعَجَّــزٍ فِــي الحِفْــظِ وَالرِّوَايَــهْ ... لَيْسَــتْ لَــهُ عَمَّــنْ رَوَىٰ حِكَايَــهْ

وَآخَــرٌ يُعْطَــىٰ بِــلَا اجْتِهَــادِ ... حِفْظًــا لِمَــا قَــدْ جَــاءِ فِــي الإِسْـنَادِ

يُفِيــدُهُ بِالقَلْــبِ لَا بِنَــاظِرِهْ ... لَــيْسَ بِمُضْــطَرٍّ إِلَــىٰ قَمَــاطِرِهْ

ذكر النَّاظِمُ في هٰذِهِ الأبياتِ أنَّ النَّاس يتفاوتُونَ في حظوظِهِمْ من الحفظِ والفَهْمِ الَّذي ينالونَ بِهِ العلمَ؛

فتَجِدُ فيهمْ مَنْ تكون له أهليَّةٌ في الفهم وقُدرةٌ عليه، فهو واعيةٌ دَرَّاكٌ للمعانِي.

وتجد منهمْ مَنْ يتقَاصَرُ عن هٰذِهِ الرُّتبَةِ من الفهمِ، فَمَا لَـهُ فيه كبيرُ نصيبٍ، وَإِن كانَ له حظٌّ من الحفظِ.

وأشار النَّاظم إلىٰ الثَّاني منهمَا بقوله:

فَــرُبَّ إِنْسَــانٍ يَنَــالُ الحِفْظَــا ... ويُــورِدُ الــنَّصَّ وَيَحْكِــي اللَّفْظَــا

وَمَــا لَــهُ فِــي غَيْــرِهِ نَصِــيبُ ... مِمَّــا حَــوَاهُ العَــالِمُ الأَدِيــبُ

فالمذكورُ في هٰذَيْنِ البيتينِ بالنِّسبة إلىٰ قوَّة الفهم هو ضعيفٌ، لا يُعَدُّ من أربابِها.

وعُرِف مُقابِله بحالِه؛ فإنَّه إذا كانَ في النَّاس مَنْ يضْعُف فَهْمُه، فمُقابِله منهمْ: مَنْ يقوىٰ فَهْمُه.

وتجدُ فيهم أيضًا بالنِّسبة للحفظِ مَنْ يكونُ ضعيفَ الحفظِ مع محبَّتِه العلمَ ورغبتِه فيه.

وتجدُ منهمْ مَنْ هو قَوِيُّ الحفظِ، مُتمكِّنٌ منه، سهلٌ عليهِ.

فالنَّاس متفاوتون في الحفظِ والفهمِ علىٰ درجاتٍ ومَرَاتبَ مُتباينَةٍ.

وأشار النَّاظم إلىٰ مَرَاتبِ النَّاس في الحفظِ في قولِه:

وَرُبَّ ذِي حِــرْصٍ شَــدِيدِ الحُــبِّ ... لِلْعِلْــمِ وَالــذِّكْرِ بَلِيــدِ القَلْــبِ



مُعَجَّــزٍ فِــي الحِفْــظِ وَالرِّوَايَــهْ لَيْسَــتْ لَــهُ عَمَّــنْ رَوَىٰ حِكَايَــهْ
وَآخَــرٌ يُعْطَــىٰ بِــلَا اجْتِهَــادِ حِفْظًــا لِمَــا قَــدْ جَــاءِ فِــي الإِسْـنَادِ
يُفِيــدُهُ بِالقَلْــبِ لَا بِنَــاظِرِهْ لَــيْسَ بِمُضْــطَرٍّ إِلَــىٰ قَمَــاطِرِهْ

فالأوَّل: كَليلُ الحفظِ، ضَعِيفُه.

والثَّاني: قَوِيُّ الحفظِ حتَّىٰ تَتمكَّن المحفوظاتُ في قلبه دونَ كبيرِ اجتهادٍ منه؛

ومنهُ: حالُ عَبْدِ اللهِ بْنِ المُبَارَكِ؛ فَإِنَّهُ سُئِلَ: كَيْفَ تَحْفَظُ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمٰنِ؟ فَقَالَ: «إِنَّمَا هُوَ إِذَا اشْتَهَيْتُ شَيْئًا حَفِظْتُهُ»؛ أيْ: إذا وُجِد في قلبِي محبَّةٌ ورغبةٌ له وَجَدَ طريقًا إلىٰ قلبِي، فتَمَكَّن منه ورَسَخ فيه، فصار عِلمُه حاضرًا بقلبِه، فهو لا يحتاجُ إلىٰ النَّظر في الكتبِ المُشارِ إليها بقولِه: (لَيْسَ بِمُضْطَرٍّ إِلَىٰ قَمَاطِرِهْ)؛

فَالقَمَاطِرُ: جَمْعُ قِمَطْرٍ، وَهُوَ: وِعَاءٌ تُحْفَظُ فِيهِ الكُتُبُ، بِمَنْزِلَةِ الحَقِيبَةِ فِي وَقْتِنَا.

فالحافظُ المتمكِّن غيرُ مُفْتَقِرٍ إلىٰ الكتُبِ الموضوعَةِ في القَمَاطِرِ.

وكان الخليل ابنُ أحمدَ يُنشِد بيتًا سَيَّارًا:

وَلَــيْسَ عِلْمًــا مَــا حَــوَىٰ القِمَطْــرُ مَــا العِلْــمُ إِلَّا مَــا حَــوَاهُ الصَّــدْرُ



قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

فَالْتَمِسِ العِلْمَ وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبْ وَالعِلْمُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالأَدَبْ

لمَّا بَيَّن النَّاظِمُ أنَّ العلم بالتَّعلُّم، ثمَّ أتبعَه بذِكْر خمسةِ مواردَ يُحَصَّل بها العلمُ؛ أرشدَ إلىٰ ما تنبَغِي ملاحظتُه في طَلَبِ العلم، فقالَ: (فَالْتَمِسِ العِلْمَ وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبْ)؛ أيْ: ابتغِ العلمَ وَاحْرِص علَىٰ تحصيلِه، سالكًا ما يجمُلُ منَ الطُّرق الموصِلَةِ إليهِ.

فقوله: (وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبْ)؛ معناه: اسْلُكْ فيه طريقًا جميلًا حسنًا، بأنْ تَأْتِيَه من وجهِهِ الَّذي يُؤْخَذ منهُ.

وقد تقدَّم فِي «تَعْظِيمِ العِلْمِ» وَ«خُلَاصَتِهِ» وَغيرهِمَا: بيانُ كثيرٍ منَ القولِ المتعلِّقِ بمَا يَجْمُل فِي طريقِ أَخْذ العلم، فمَنْ سلكَها كَان أَخْذُه جَميلًا، ومَنْ عَدَل عنهَا إلىٰ غيرهَا أَضَرَّ بنفسِهِ في العلمِ لغَلَطِه فِي سلوك طريقِه.

ثمَّ ذَكَر أنَّ من مفاتيحِ حِيازةِ العلمِ: سلوكُ الأدَبِ، والتزامُ مُقتَضَاه في النَّفْس والدَّرس ومعَ الشَّيخ والزَّميل، فقال: (وَالعِلْمُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالأَدَبْ)، وَهوَ فِي مَعنىٰ قولِ يُوسُفَ بْنِ الحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللهُ: «بِالأَدَبِ تَفْهَمُ العِلْمَ». رَوَاهُ الخَطِيبُ البَغْدَادِيُّ فِي «اقْتِضَاءِ العِلْمِ العَمَلَ».

وَالجُمْلَةُ المَذْكُورَةُ لَهَا مُتَعَلَّقَانِ:

أَحَدُهُمَا: الهِبَةُ الإِلٰهِيَّةُ.

وَالآخَرُ: المِنْحَةُ البَشَرِيَّةُ.

فَأَمَّا الهِبَةُ الإِلٰهِيَّةُ: فَإِنَّ اللهَ يَهَبُ العِلْمَ لِمَنْ كَانَ مُتَأَدِّبًا، فَإِنَّ العِلْمَ مَيرَاثُ النُّبُوَّةِ، وَإِنَّ اللهَ لَا يَجْعَلُ مِنْ أَنْوَارِ النُّبُوَّةِ فِي قُلُوبِ قَلِيلِي الأَدَبِ.

ولو قُدِّرَ وجودُ شيءٍ من العلمِ عندَ قليلِ أدبٍ فهوَ ليسَ العلمَ الممدوحَ شرعًا.

فالعلمُ الممدوحُ شرعًا: هو النافع، المُقرِّب إلىٰ اللهِ، الحاملُ للعبد علىٰ التزام شريعتِهِ.

وأَمَّا المِنْحَةُ البَشَرِيَّةُ: فَإِنَّ المُعَلِّمِينَ يَتَعَاهَدُونَ المُتَأَدِّبِينَ؛ فَهُوَ يَبْذُلُ عِلْمَهُ لِلْمُؤَدَّبِ، وَيَمْنَعُ قَلِيلَ الأَدَبِ مِنْهُ، فَإِنَّ العَاقل من المُعَلِّمِينَ يعلم أنَّ العلمَ خزانَةٌ، وَهُوَ أمينٌ عليهَا، فمِنْ صِدْقِ الأمانةِ أنْ يتحرَّىٰ مَنْ له حقٌّ فِي تِلْكَ الخِزَانَةِ، وصِدْقُ الأمانة يحملُه علىٰ أن يتحرَّىٰ في مَنْ له حَقٌّ فِي تِلْكَ



الخِزَانَةِ، ولا حقَّ في العلم إلَّا لمَنْ تأدَّب بآدابِه، فإنَّ الَّذين لا يتأدَّبون بآدابِ العلمِ معَ اللهِ، ومعَ رسولِهِ ﷺ، ومع أئمَّة أهلِ العلمِ، ومع شيوخِهِم، ومعَ أقرانِهم، ومعَ مجالسِ العلمِ وأهلِه؛ ليسَ لهم حقٌّ في تلك الخزانةِ؛ فإنَّ تلكَ الخزانَةَ فيها العلمُ الموروثُ عن النَّبِيِّ ﷺ، والأمينُ الصَّادقُ لا يجعلُ تلكَ الجواهِرَ واللَّآلِئَ إلَّا عند مَنْ لَهُ حقٌّ فيها.

وأولئكَ الَّذين لهم حقٌّ هم الملتزمونَ بشروطِهَا من الآدابِ الشَّرعيَّةِ، والأحكام المَرْعِيَّةِ، فإذا وُجِدَت فيهمْ كَانَ حقيقًا بحامِلِ العلمِ أن يبذلَهُ لهُم، وإذَا سُلِبَتْ منهُم كانَ حقيقًا بصاحبِ العلم أن يمنَعَه منهُم.

وَاعْتَبِر هٰذَا فِي أخبارٍ مِن أحوالِ مَنْ مضَىٰ؛ فإِنَّ عَبْدَ الرَّحْمٰنِ بْنَ أَبِي حَاتِمٍ وَأَصْحَابَهُ لَمَّا قَصَدُوا مِصْرَ لِسَمَاعِ الحَدِيثِ عَلَىٰ الشُّيُوخِ، وَضَاقَ بِهِمْ زَمَنُهُمْ عَنِ السَّمَاعِ عَلَىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْلَمَةَ بْنِ قَعْنَبٍ القَعْنَبِيِّ كَانَ يَأْتِيهِمْ بَعْدَ العِشَاءِ، فَيَقْرَأُ عَلَيْهِمْ كِتَابَ «المُوَطَّأ» الَّذِي يَرْوِيهِ عَنِ الإِمَامِ مَالِكٍ؛ لِأَنَّهُ رَآهُمْ أَهْلَ أَدَبٍ، يَتَحَرَّوْنَ العِلْمَ وَيَلْتَزِمُونَ شُرُوطَهُ، فَحَمَلَ عَلَىٰ نَفْسِهِ فِي حَمْلِ العِلْمِ إِلَيْهِم لِأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَهُ وَهُمْ مِنْ أَهْلِهِ.

وَفِي أَخْبَارِ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «إِنِّي لَأَحْرِمُ الرَّجُلَ الفَائِدَةِ لِمَا أَرَىٰ مِنْ حَالِ جَلِيسِهِ»، فَهو يلاحظ أنَّ ملتمسَ العلم له صُحبةٌ لا تصلُحُ فيهِ فيمنَعُه العلمَ؛ لأنَّه يخافُ أن تُفسدَه تلكَ الصُّحبةُ فيُجعَل العلمُ عندَ مَنْ لَا يستحقُّهُ.



قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

الأَدَبُ النَّــافِعُ حُسْــنُ الصَّــمْتِ فَفِــي كَثِيــرِ القَــوْلِ بَعْــضُ المَقْــتِ

فَكُــنْ لِحُسْــنِ الصَّــمْتِ مَــا حَيِيتَــا مُقَارِنًــا تُحْمَــدُ مَــا بَقِيتَــا

لمَّا قرَّرَ النَّاظِمُ أنَّ العلم لا يحصلُ إلَّا بالأدبِ شَرَعَ يذكُرُ أنواعًا منَ الأدبِ ووجوهًا منه، مُقَدِّمًا (حُسْن الصَّمْتِ)؛ أيْ: الصَّمتَ الحَسَنَ بالإمساكِ عمَّا لا يُحتَاجُ إليهِ من الكلامِ.

ويتأكَّد الصَّمت إذا تحقَّقت مَضَرَّةُ الكلامِ، أو لم تتبيَّنْ منفعتُه ولا مَضَرَّتُه.

فَالكَلَامُ ثَلَاثَةُ أَقْسَام:

أَحَدُهَا: كَلَامٌ بَيِّنُ المَنْفَعَةِ.

وَثَانِيهَا: كَلَامٌ بَيِّنُ المَضَرَّةِ.

وَثَالِثُهَا: كَلَامٌ لَمْ يَتَبَيَّنْ نَفْعُهُ مِنْ ضَرَرِهِ.

والعبدُ مأمورٌ في القسميْنِ الأخيرينِ بِالصَّمتِ لِمَا في الصَّحيحينِ من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»؛ فالكلامُ المأمورُ به هو مَا كانَ خيرًا- أي بَيِّنَ المنفعة -، وَمَا عَدَاه - ممَّا يكون بَيِّنَ المضرَّةِ، أو لم تتحقَّق منفعتُه من مضرَّتهِ - فَإِنَّ العَبْدَ مأمورٌ بالإمساكِ عنه وأن يَخْزِنَ لسانَه ويحفظه، مُمتثلًا ما أرشدَ إليه النَّاظم بقوله:

فَكُــنْ لِحُسْــنِ الصَّــمْتِ مَــا حَيِيتَــا مُقَارِنًــا تُحْمَــدُ مَــا بَقِيتَــا

أيْ: كُن خازنًا لِلَسَانك، حافظًا له، مُمسِكًا عمَّا لا خيرَ فيهِ من الكلَامِ، فإنَّك تَحْمدُ عاقبة ذَٰلِكَ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ، ويبقَىٰ ذِكْرُكَ بِالخيرِ في الحياةِ وفِي المَمَاتِ مَا بقي خَبرُكَ.

وَهٰذَا الأمْرُ هو منْ أكثَرِ مواردِ العَطَبِ الَّتِي تُفسِدُ بهَا أحوالَ الخلقِ إذا أرسلُوا أَلسِنَتُهُم فِي ما لا ينفعُهُم، أوْ في ما هو بَيِّنُ الضَّرَرِ، أو ممَّا لا يَتَبَيَّنُ نَفْعُه منْ ضَررِه، فإنَّه يرجِع هٰذَا عَليهم بفسادِ قلوبهم.

وقد ذكَرَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ في غيرِ كتابٍ أبوابًا من مُفسِدات القلوبِ، فَلَهَج بواحدٍ منهَا وَهُوَ: (كَثرة الكلَام)، فإنَّ مَنْ كَثُرَ كلامُه كَثُرَ خطؤُه فوقَعَ فِي ما يضرُّ، أو وَقَعَ في ما لا يتبيَّن منفعتُه من ضررِه، فيرجعُ ذَٰلِكَ عليْهِ بفسَادِ قلبِه.



وحَبْسُ اللِّسانِ وخَزْنُه من الرِّياضَاتِ النَّافِعَةِ فِي تهذيبِ النَّفْسِ وَإِصْلَاح الأخلاقِ، فينبغـي أن يُعَـوِّد أحدنَا نَفْسَه خَزْن لسانه بأن يتقلَّلَ من الكلَامِ، وإذَا جَلَسَ في موضعٍ فيهِ غيرُه ممَّنْ هو أكبرُ منه أمسَكَ ولـم يتكلَّمْ، وإن كانَ يُشَارُ إليهِ بالعلمِ أكثرَ منهُ، ممَّنْ هو في أقرانِه، فإنَّ رعَايةَ هٰذَا مِمَّا ينتَفِع بِهِ العبـدُ في صـلَاحِ قلبِهِ وحُسْنِ دينِه.

وإذا كَثُرَ هَذْرُ المرْءِ وجَرَيَانُ لِسَانِهِ بين النَّاس وقعَ في أشياءَ تُفسِدُ دينَه ودنيَاهُ.

وفِي أَخْبارِ مُوَرِّقٍ العِجْلِيِّ أَنَّهُ قَالَ: «جَاهَدْتُ نَفْسِي عَشْرَ سِنِينَ فِي تَعَلُّمِ الصَّمْتِ». انتهىٰ كلامه.

ووجْهُ المُجَاهَدَةِ: أَنَّهُ توجدُ عندَه شَهْوَةُ الكَلَامِ فَيَحْبسُ لسانَه.

فإذا أردتَ أن ترتَاضَ رياضَـة حِفْـظ اللِّسـان فاعقـلْ هٰـذَا المعنـىٰ، فـإذَا اشـتاقت نفسُـكَ للكـلامِ، وارتفعتْ إليكَ الأبصارُ وأشارتْ إليكَ الأصابعُ فأَلْجِمْ لسَانَكَ مَا استطعتَ، إمَّـا بالإمسـاكِ عـنِ الكـلامِ تارةً، أو بالتَّقلُّلِ منه تارةً أخرَىٰ، فإذا أُلْجِئْتَ إلَىٰ الحَديث فأَقِلَّ الكلامَ، فإنَّ قِلَّة الكَلَام يكثُرُ بهَا دينُ المرء وعقله، كمَا أنَّ كثرةَ الكلَامِ يَضْعفُ بها دينُ المرء وعقلُه.

وَاعْتَبِر هٰذَا في أحوالِ النَّاس تجدْ صِدْقَهُ.



قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَإِنْ بَـدَتْ بَـيْنَ أُنَـاسٍ مَسْـأَلَهْ مَعْرُوفَـةٌ فِـي العِلْـمِ أَوْ مُفْتعَلَـهْ
فَـلَا تَكُـنْ إِلَـىٰ الجَـوَابِ سَـابِقَا حَتَّـىٰ تَـرَىٰ غَيْـرَكَ فِيـهِ نَاطِقَـا
فَكَـمْ رَأَيْـتُ مِـنْ عَجُـولٍ سَـابِقِ مِـنْ غَيْـرِ فَهْـمٍ بِالخَطَـاءِ نَـاطِقِ
أَزْرَىٰ بِـهِ ذَٰلِـكَ فِـي المَجَـالِسِ بَـيْنَ ذَوِي الأَلْبَـابِ وَالتَّنَـافُسِ
الصَّـمْتُ فَـاعْلَمْ بِـكَ حَقًّـا أَزْيَـنُ إِنْ لَـمْ يَكُـنْ عِنْـدَكَ عِلْـمٌ مُـتْقَنُ

ذَكَرَ النَّاظِمُ أنَّ من **موارِدِ الصَّمتِ الحَسَن**: الإمساكُ عن الكلامِ فِي مَا يجري ذِكْرُه من مسائلِ العلـمِ، ممَّا شُهِرَ منهُ في المسائلِ المقرَّرَةِ الحاصِلَةِ أو فِي المسائلِ المتجدِّدةِ النَّازلَةِ.

فإنَّ الصَّمتَ الحَسَنَ: أن يُمسكَ المرءُ عن الجوابِ فيه حتَّىٰ يرىٰ غيرَه ممَّنْ هُم أكملُ عِلمـًا، وأكـبرُ سِنًّا، وأتمُّ عَقْلًا قد تكلَّموا فيه فيتكلَّمُ حينئـذٍ بمثـلِ كَلَامهِـم، ويُحـابي مقـالَهُم، ويبنـي علـىٰ أصـولِهِم، ويُوَسِّع النَّظر في ما قرَّرُوهُ.

فمِنْ حُسن صمْتِ أحدِنا: ألَّا يزاحم أهلَ العلمِ القائمينَ بِهِ في ما هُمْ به أَوْلَىٰ.

وإذا أرادَ أن يتكلَّم لم يتقدَّمْ بين أيديهم، فإذَا تكلَّمُوا وكَانَ قَدْ زَوَّر في نفسه أن يـتكلَّم بمثـلِ كلَامِهِـمْ تكلَّمَ حِينئذٍ بعدَ كَلَامهمْ، وإنْ زَوَّرَ في نفسِه خلافَ كلامِهم أمسَكَ حينئذٍ عن الكلامِ؛ فإنَّه خيرٌ لَـهُ في دينِـه وعقلِه.

فلو قُدِّرَ أنَّ أَمْرًا منَ الأمورِ جَرَىٰ بين النَّاس فَالْزَمِ الصَّمتَ الحَسَنَ وإن كـانَ النَّـاسُ ينتظـرونَ منـكَ كلمةً، فإذَا تَقَدَّمَ بينَ يديْكَ أَحَدٌ فَتَكَلَّمَ واحتِيجَ إلىٰ كلامِكَ - نُصْرةً للحقِّ وتقويةً لهُ وكنـتَ تريـدُ الكـلامَ بمثلِ ما تكلَّم به - فتكلَّم بعدَهُ، وإن عَرَضَ لكَ من المعَانِي مَا تَرَىٰ به أنَّ الـرَّاجح عنـدكَ هـو خـلافُ مـا قَرَّره وكانَ هو منَ المَأْمُونينَ في العلمِ، المنظورِ إليهِمْ عندَ الخَلْق فلا تُزاحمْه، وَالْزَمِ ما عندَكَ مـن العلـمِ، حتَّىٰ إذا احتيجَ إليكَ فَحِينئذٍ قُمْ في هٰذَا المقَامِ.

فإنَّ مَنْ رَعَىٰ هٰذَا الأدَبَ منَ العلمِ في نَفْسِه حَفِظَ دينَه وعقلَه، ومَنْ زَاحَم أَهْلَ العلمِ أزْرَىٰ علىٰ دينِـه وعقلِه.



وَذكَر النَّاظِمُ منْ مَزَالقِ العَجَلَة في العلمِ والمسابقَةِ بالقولِ فيه الوقوعَ في الخطإِ الَّذي يُزرِي بصاحبِه عندَ المتنَافِسِينَ في معالِي الأمورِ، فإنَّ المُسارعَةَ والمُسابقَةَ إلىٰ القولِ تَجُرُّ إِلَىٰ الوقوعِ فِي الخطإِ، فيكونُ ذَٰلِكَ رَزِيَّةً تعيبُ المتكلِّم بهَا.

وإذا كانتِ الحالُ كذَٰلكَ فالأمرُ النَّافع سلوكُه هو المذكورُ في قولِ المصنِّف:

الصَّمْتُ فَاعْلمْ بِكَ حَقًّا أَزْيَنُ ... إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ عِلْمٌ مُتْقَنُ

فالصَّمتُ عندَ بُدُوِّ القولِ في مسائِلِ العلمِ أَزْيَنُ بأهلهِ إن لم يكنْ عندَ المتكلِّمِ علمٌ مُتقَنٌ – أيْ: علمٌ رَاسِخٌ –.



قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقُـلْ إِذَا أَعْيَـاكَ ذَاكَ الأَمْـرُ ... مَـا لِـي بِمَـا تَسْـأَلُ عَنْـهُ خُبْـرُ

فَـذَاكَ شَـطْرُ العِلْـمِ عِنْـدَ العُلَمَـا ... كَـذَاكَ مَـا زَالَـتْ تَقُـولُ الحُكَمَـا

ذكر النَّاظِمُ الجوابَ النَّافعَ فِي المسائلِ الَّتي يَعْزُبُ عِلم أحدِنَا عنهَا، وَهُوَ قولُ: (لَا أَدْرِي)، المُشَارِ إليه بقولِه: (مَا لِي بِمَا تَسْأَلُ عَنْهُ خُبْرُ)؛ فإذا سُئِل المرءُ عن شيءٍ لا يعلمُه كانَ الجوابُ النَّافعُ هو أنْ يصدَعَ بقولِ: (لَا أَدْرِي).

ولِجلَالةِ هٰذِهِ الكلمةِ صارتْ نِصْفَ العلمِ، كَما قَالَ:

فَـذَاكَ شَـطْرُ العِلْـمِ عِنْـدَ العُلَمَـا ... كَـذَاكَ مَـا زَالَـتْ تَقُـولُ الحُكَمَـا

فمِنَ الشَّائِع قولُهُمْ: «لَا أَدْرِي؛ نِصْفُ العِلْمِ».

وأقدمُ مَنْ أُثِرَت عنهُ هٰذِهِ الكَلِمَةُ هُوَ عَامِرُ بْنُ شَرَاحِيلَ الشَّعبِيُّ، أَحَدُ التَّابِعِينَ. رَوَاهُ الدَّارِمِيُّ وَغَيْرُهُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

نَعَمْ؛ وقعَ فِي كلَامِ أَبِي عُمَرَ بْنِ عَبْدِ البَرِّ فِي «جَامِعِ بَيَانِ العِلْمِ وَفَضْلِهِ»، وَفِي «الانْتِقَاءِ» أَنَّهُ قَالَ: (وَصَحَّ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ قَالَ: «لَا أَدْرِي؛ نِصْفُ العِلْمِ»)، وَهٰذِهِ الكلمةُ لَمْ توجَدْ مَرويَّةً عن أَبِي الدَّرْدَاءِ فِي مَا فِي أَيْدِينَا منَ التَّآليف، فأخشىٰ أن يكونَ وَهَماً.

فإنْ صَحَّ أنَّها رُوِيَتْ عنه فأبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أقدَمُ من الشَّعبِيِّ، فهو صحابيٌّ وَالشَّعبِيُّ تابعيٌّ، لٰكِنَّ المرويَّ بإسنادِهِ في الكتبِ الَّتي اتَّصلتْ بنَا هوَ مروي عن الشَّعبِيِّ عند الدَّارِمِيِّ وَغَيْرُهُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وَوَجْهُ كونِهَا نصفَ العلمِ: أنَّ العلمَ مقسومٌ بينَ (أَدْرِي) وَ(لَا أَدْرِي)؛ فَأَحدُهما نصفُ الآخر. ذَكَرَه يَحْيَىٰ بنُ آدَمَ فِي مَا رَوَاهُ عَنْهُ ابْنُ نَصْرٍ فِي «تَعْظِيمِ قَدْرِ الصَّلَاةِ».

فالعلمُ بينَ شيءٍ يُدرَىٰ وشيءٍ لا يُدرَىٰ، فالَّذي يُدرَىٰ يَتكلَّم به دارِيهِ بمَا يعرفُه، والَّذي لا يُدرَىٰ يُمسِكُ عنهُ المسْئُولُ فيقول: (لَا أَدْرِي).

ومِنْ لَطِيفِ العلْمِ: أَنَّ سَعِيدَ بْنَ عَبْدِ العَزِيزِ - أَحَدِ عُلَمَاءِ أَتْبَاعِ التَّابِعِينَ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ - كَانَ يَقُولُ: «لَا أَدْرِي لِمَ (لَا أَدْرِي) نِصْفُ العِلْمِ». رَوَاهُ عَنْهُ أَبُو زُرْعَةَ الدِّمَشْقِيُّ فِي «تَارِيخِهِ».

وَكَشْفُ مَا غَمُضَ عليهِ: هوَ المعنىٰ المتقدِّم الَّذي ذكره يحيىٰ بنُ آدمَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعالىٰ.



وقدْ صَارَ هٰذَا الأصلُ- (لَا أَدْرِي) – أَصْلًا راسخًا في العلمِ عندَ أهلِه؛ أنَّ مَنْ سُئلَ عن شيءٍ منهُ لم يعلمْه فإنَّ الوصيَّة النَّافِعَةَ فِي حَقِّه أن يلزمَ قَوْل: (لَا أَدْرِي)، حتَّىٰ صارَ أهلُ العلمِ والحِكمةِ يُوصي بعضهم بعضًا بلزومِ هٰذِهِ الكلمةِ.

وقد أشرتُ إلىٰ هٰذَا المعنَىٰ في أبيَاتٍ؛ منها قولِي في أوَّلِها:

وَقَــوْلُ (لَا أَعْلَــمُ) عِنْــدَ العُقَــلَا   عُــدَّ فِــي العِلْــمِ ونِصْــفًا جُعِــلَا

وفَقْــدُهَا مِــنَ اللِّسَــانِ عَــابُوا   مَقَاتِــلُ المَــرْءِ بِــهِ تُصَــابُ

إلىٰ آخرِ تلكِ الأبياتِ.



قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

إِيَّـــاكَ وَالعُجْـــبَ بِفَضْـــلِ رَأْيِكَـــا وَاحْذَرْ جَـوَابَ القَـوْلِ مِـنْ خِطَابِكَـا

كَـمْ مِـنْ جَـوَابٍ أَعْقَـبَ النَّدَامَـهْ فَـــاغْتَنِمِ الصَّـــمْتَ مَـــعَ السَّـــلَامَهْ

حَذَّر النَّاظِمُ في هٰذَيْنِ البَيْتَيْن من بَلِيَّتَيْن تكتنفَانِ المتكلِّم في العلم:

فالبَلِيَّةُ الأُولَىٰ: مُداخَلَةُ العُجبِ النَّفْسَ، وَتَسَلُّلُهُ إليهَا، فيَرَىٰ المُـتَكَلِّمُ فِـي العلـمْ لنَفسِـه عَلَـىٰ غيـرِه فَضْلًا، ثمَّ يطلبُ لها قَدْرًا ووَصْلًا.

والعُجْبُ هُوَ: النَّظَرُ إِلَىٰ النَّفْسِ بِعَيْنِ الإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ.

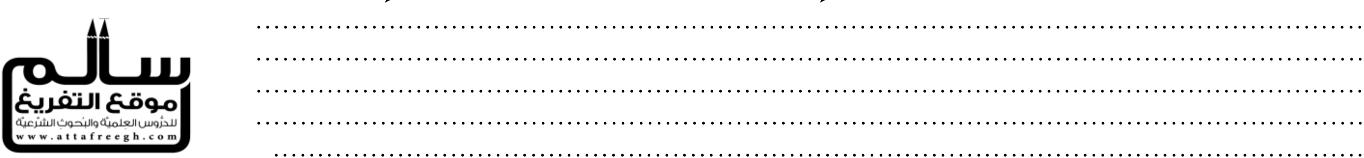
فتجد من النَّاس مَنْ ينتسبُ إلىٰ العلمِ ويُعَدُّ من أهلِهِ وتعتريهِ هٰذِهِ البليَّةُ، فيُعجَب بنفسِه، نـاظرًا إليهـا بِعَيْنِ الإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ، فهوَ يرىٰ أنَّ له من الكمالِ ما ليسَ لغيرِه، وأنَّ عندَه منَ الفضْلِ تَحْصيلًا وبيانًا مَا ليسَ عندَ سوَاهُ، فَيَزْهُوَ بنفسِه علَىٰ الخَلْقِ، وَهي منْ أعْظَمِ الغَوَائِلِ المُفسِدةِ للمرءِ فِي علـمٍ أو غيـرِه؛ لأنَّ العبدَ مأمورٌ أن ينظرَ إلىٰ نفسِه بعين النَّقص، مُجتهدًا في القيام بحقِّ الله.

ومنه: حالُه ﷺ في قيامِه اللَّيلَ حتىٰ تتفطَّر قدمَاهُ، فتقول له عائشةُ: يَا رَسُـولَ اللهِ؛ إِنَّ اللهَ غَفَـرَ لَـكَ مَـا تقدَّم من ذنبِكَ ومَا تأخَّر!، فيقول: «يَا عَائِشَةُ؛ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»؛ فهو لا يرىٰ أنَّ مـا لـه مـن حُسْـنِ عبادةِ ربِّه شيئًا، وأنَّ الله حقيقٌ بدوام شُكْرِه، وأنَّه مهما أتىٰ من عبادةِ الله وتعظيمِه فإنَّ حقَّ الله أعظمُ.

فالمرءُ مأمورٌ أن ينظرَ إلىٰ نَفسِـه بعيـنِ الإزراءِ والعيـبِ، وأن يقمَـعَ طُغيـانَ العُجـبِ منهـا، فإنَّـه إذا استولَىٰ علَىٰ قلبِ العبد أفسدَه، فالمرءُ إذا أعجبتْه نَفْسُه في عبادةٍ أو علمٍ أو غيرهمَـا عَلِـقَ بقلبِـه مَنْجَنِيـقٌ ربَّما جَرَّه إلىٰ مهاوِي الرَّدَىٰ، وَلَا سبيلَ إلىٰ الخَـلَاص منه إلَّا بملاحظـة أنَّ النِّعْمَـةَ الَّتِـي أَنْـتَ فِيهَـا لَـمْ تَكْتَسِبْهَا بِقِوَاكَ وَلٰكِنَّ اللهَ هَدَاكَ، فإذَا أعجبَك أنَّك جالسٌ في حِلَق العلم، معدودٌ في طُلَّابـه؛ فـاعلم أنَّ الله ﷻ له الفضلُ الأعظمُ عليكَ، فهو الَّذي هَدَاك إلـىٰ ذٰلِـكَ، وإلَّا لَكُنْـتَ كغيـركَ ممَّـنْ تنظـرُ إلـيهم بعـينِ النَّقص ممَّنْ يُخالطونَ المعاصي أو يُضَيِّعُونَ أوقَاتَهُم في مَا لا ينفعُهُم.

والبَلِيَّةُ الثَّانية: ابتداءُ القول بشيءٍ لم يتكلَّم به أحـدٌ قبلَـكَ، فيكـونُ إنشـاؤُه مـن مبتكـراتِ خيالِـك، ومبتدَاتِ أفكارِكَ.

ومَحلُّ الذَّمِّ: في مَا يُحتَاج إليه من العلمِ المشهورِ الَّذِي تكلَّم فيهِ أهلُ العلمِ طبقةً بعد طَبَقَةٍ.



فالعدولُ عمَّا قالُوا، وإبداءُ سِواه ممَّا يُعَابُ به المرءُ؛ لأنَّ العادةَ الجاريةَ أن يكونَ هٰذَا الَّذي أبدَاهُ غيرَ مبنيٍّ علَىٰ أصلٍ وثيقٍ، وَلا مَسبوقٍ بعالمٍ عتيقٍ، فهو يستحسنُ شيئًا ثمَّ يتكلَّم به.

فمتىٰ وُجِدَت تلك الحالُ منَ العبدِ فإنَّها بَليَّةٌ.

طيب؛ لو قالَ إنسانٌ: نحنُ سَمعنَاكَ تقولُ: الصَّلَاةُ هيَ: الحُنُو وَالعَطفُ، وَنحْن نحضرُ الدُّروسَ، ونقرأُ في الكتُبِ: (الصَّلَاةُ هِيَ: الدُّعَاءُ)، فَهَا أنتَ عندَكَ هٰذِهِ البليَّةَ!

واضح الإشكالُ؟.. نحنُ نُحِبُّ النَّاصحَ الصَّادقَ الذِي يَنصحنَا، فإنَّنا بشر غير معصومين.

والجوابُ: أنَّ هٰذَا القولَ الَّذي ذكرتُه مُتَّصفٌ بوصفينِ:

أحدهما: أنَّه مبنيٌّ علَىٰ أصلٍ وثيقٍ؛ فإنَّ اسم (الصَّلاة) في كلامِ العربِ يقعُ علىٰ هٰذَا.

والآخر: أنَّ هٰذَا القولَ الَّذي ذكرتُه لكَ قدْ سُبِقْتُ بهِ من محقِّقينَ لِلْعلمِ، منهم: السُّهَيْلِيُّ، وابن القيِّم، وابنُ هشامٍ، والدَّمَنْهُورِيُّ في آخرينَ.

وقد زَيَّفَ ابن القيِّم دعوىٰ أنَّ (الصَّلَاةُ هِيَ: الدُّعَاءُ) فِي «بدائعِ الفوائدِ» مِن أربعةِ وجوهٍ.

فكونُك لا تعلمُ هٰذَا لا يعْني أنَّ هٰذَا القولَ الَّذي سمعتَه قولٌ جديدٌ في العلمِ، وإنَّما هو جديدٌ عليكَ، أو جديدٌ علىٰ زمَانِ أهلِ علمٍ شُهِرَ عندَهُم قَوْلٌ حتَّىٰ غَلَبَ عَلَيْهِم هٰذَا القَولِ.

فالمذمومُ الممقوتُ هو: الَّذي لا يُبنَىٰ علىٰ أصلٍ وثيقٍ وَلَا يرجِعُ إلىٰ علمٍ عتيقٍ.

ثمَّ محلُّ هٰذَا الذم: فِي مَا يتعلَّق بِهِ تقريرِ أصولِ الدِّين وبيانِ أحكامِه ممَّا تَتابَع عليه النَّاس، دونَ مَا بُنِيَ عَلَىٰ أصولِ الفهمِ والإدراكِ الَّتي جرىٰ عليهَا أهلُ العلمِ.

فمثلًا: لو قلتُ لكُمْ: إنَّ منْ أنواعِ علومِ الحديثِ نوعُ (المَقْرُونِ)؛ وهو: أن يُذْكَرَ في الإسنادِ اثنانِ فأكثر، كأنْ يقولَ مسلمٌ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ، وَيَحْيَىٰ بْنُ أَيُّوبَ، وَقُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ؛ جَمِيعًا عنْ إسماعيلَ بنِ جعفرَ). إلَىٰ تمَامِه، فالثَّلاثة الأوائلُ تُسمَّىٰ روايتُهُم (مقرونًا)، وَهٰذَا النَّوع لَهُ وقوعٌ عند المُحدِّثينَ، ولهُمْ منفعةٌ في علمِهِمْ، فمِنْ منافعِه أنَّ هٰذَا يُسمَّىٰ (مُتَابَعَةً)، فَلَانٌ وفلانٌ وفلانٌ رَوَىٰ الحديثَ عنِ إسمَاعيلَ بنِ جعفرٍ. إلىٰ غير ذَٰلِكَ من منافعِه.

فحينئذٍ تكونُ زيادةُ هٰذَا النَّوع ممنوعـًا منهَا أو مأذونـًا بهَا؟ مَا الجوابُ منَ العلم؟



الجَوابُ أَنَّها مأذونٌ بهَا من وجوهٍ كثيرةٍ؛ لٰكِنْ أيسرُها: مَنْ أَوَّل مَنْ صَنَّف وعَدَّد أنواع علوم الحديث ممَّنْ صَنَّف فِي مصطلحِ الحديثِ؟

ابنُ الصَّلاح، ذكرَ أنواعًا..

طيبْ؛ زادَ أهل العلمِ عليه أم ما زَادُوا؟

زادُوا؛ زادوا عليه أنواعًا، العراقيُّ، ثمَّ زادَ ابنُ حجَرٍ، ثمَّ زاد السُّيوطيُّ حتَّىٰ بَلَّغها أكثرَ من تسعينَ نوعًا.

فالأصلُ عند أهلِ العلمِ فِي هٰذَا أَنَّه محلٌّ للزِّيادةِ، ولِذَٰلك ينبغِي أنْ يُحسِن المتكلِّمُ فِي العلمِ مواردَ الفهم من أصولِه الَّتي يُقرِّرها أهلُه حتَّىٰ يعرفَ ما يجرِي فيه القولُ ومَا لَا يجرِي فيه القولُ.

وما كان ممنوعًا من القول فيه فالسلامة فيه امتثال ما ذَكَره الناظم بقوله: (فَاغْتَنِمِ الصَّمْتَ مَعَ السَّلَامَهْ)؛ فَسَلَامَةُ دينِ الإنسانِ أن يمتثلَ الصَّمتَ مُبتغيًا سلامةَ دينِه عندَ اللهِ، وعِرْضِه عندَ الخلقِ، علىٰ أنَّ مَنْ نَبُلَ فِي العلمِ يُبْتلَىٰ بمَنْ لم يَصِل إلىٰ مرتبةِ النُّبْلِ فيهِ مِمَّنْ يُزَيِّف أَقْوالًا صحيحةً في كلِّ قرنٍ وزمانٍ، وَلٰكِنَّ طريقَ إيصالِ الخيرِ إليهِ ليسَ بمُلاجَجَتِهِ ومجادلَتِه بالباطلِ، وإنَّمَا بنَصْب الحقِّ، ولِذَٰلك فإنَّه ما مِنْ مسألةٍ يستغربُها سامعُها أذكرُهَا إلَّا وأذكرُ أحدًا من أهلِ العلمِ قالَ بهَا.

فَهٰذِهِ المسائلُ الَّتي ذكرناهَا وأمثالُها من المسائلِ الَّتي يظنُّ بعضُ النَّاس أنَّ هٰذِهِ مسائلَ جديدةً؛ ما من مسألةٍ إلَّا وفيها من أهلِ العلمِ مَنْ تكلَّم؛ لأنَّ هٰذَا هوَ الأصلُ الَّذِي يَسْلَمُ به دينُ الإنسانِ ويحصلُ به النَّفع للخَلْق.

فإنَّه ليس المقصودُ من جَمْع العلم أن يُنهِك المرءُ قلبَه ودينَه في مُراغمةِ النَّاس ومُجادلتِهم ومُجالَدَتِهم، وإنَّما مقصودُ صاحِبِ العلمِ الصَّادق أن يُوصلَه العلمُ إلىٰ الله، ويكونُ هو مُوصلًا لِلخَلْق إلىٰ اللهِ، فمتىٰ كانت هٰذِهِ نيَّتُه فَتَح الله عليه بأنواع المعارف ولم يُشغله بالخَلقِ.

وما أحسن قولَ ابْنِ عَوْنٍ: «ذِكْرُ النَّاسِ دَاءٌ، وَذِكْرُ اللهِ دَوَاءٌ».

وقال مَكْحُولٌ الشَّامِيُّ: «ذِكْرُ النَّاسِ دَاءٌ، وَذِكْرُ اللهِ شِفَاءٌ».

فاشتغلوا بالدَّواء والشِّفاء، واحذروا من الدَّاء.

قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

العِلْـــمُ بَحْـــرٌ مُنْتَهَـــاهُ يَبْعُـــدُ لَـــيْسَ لَـــهُ حَـــدٌّ إِلَيْـــهِ يُقْصَـــدُ
وَلَـــيْسَ كُـــلُّ العِلْـــمِ قَـــدْ حَوَيْتَـــهُ أَجَـــلْ وَلَا العُشْـــرُ وَلَـــوْ أَحْصَـــيْتَهُ
وَمَـــا بَقِـــي عَلَيْـــكَ مِنْـــهُ أَكْثَـــرُ مِمَّـــا عَلِمْـــتَ وَالجَـــوَادُ يَعْثُـــرُ

ذكر النَّاظِمُ ممَّا يُستعانُ بِهِ فِي تحصيلِ المطلوبِ المأمولِ معرفتُه ممَّا يُسَهِّل بلـوغَ الأَرَب إدراكَ هٰـذِهِ الحقائقَ المذكورةَ فِي هٰذِهِ الأبياتِ الثَّلاثَةِ، فكلُّ بيتٍ منهَا يُشَيِّد معنًىٰ سامقًا، ذَا بَالٍ فِي العلمِ؛

فأَوَّلُها: معْرِفَةُ مُلتمِسِ العلمِ أنَّ العلمَ واسعٌ لا مُنتهَىٰ لهُ، كما قال النَّاظم:

العِلْـــمُ بَحْـــرٌ مُنْتَهَـــاهُ يَبْعُـــدُ لَـــيْسَ لَـــهُ حَـــدٌّ إِلَيْـــهِ يُقْصَـــدُ

والثَّاني: معْرِفَةُ مُلتمِسِ العلمِ أنَّه مهما حَصَّل منهُ فلنْ يجمعَه كُلَّه، ولا عُشْرَهُ، ولوِ اجْتَهَد فِي إحصائِه؛ فإنَّ القُوَىٰ البشريَّة تَتَناقصُ عن هٰذَا.

وثالثُها: معْرِفَةُ مُلتمِسِ العلمِ أنَّ ما بَقِي وفَضُلَ وراءَ ما أدركَه أكثرُ وأعظمُ، وهي حـالُ الـنَّقْص الَّتـي طُبِعَ عليهَا الإنسانُ، فالجَوَاد مهمَا كان قويًّا يَعْرِض لَه عِثارٌ يسقطُ به.

فملتمِسُ العلمِ مهمَا ابتغَىٰ منه مُجتهدًا فإنَّه يبقىٰ وراءَ ما أدركَ منَ العلمِ علومٌ كثيرةٌ.



قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

فَكُـنْ لِمَـا عُلِّمْتَـهُ مُسْـتَفْهِمَا   إِنْ كُنْـتَ لَا تَفْهَـمُ مِنْـهُ الكَلِمَـا
القَـوْلُ قَـوْلَانِ؛ فَقَـوْلٌ تَعْلَمُـهُ   وَآخَـرٌ تَسْـمَعُهُ فَتَجْهَلُـهُ
وَكُـلُّ قَـوْلٍ فَلَـهُ جَـوَابُ   يَجْمَعُـهُ البَاطِـلُ وَالصَّـوَابُ
وَلِلْكَـلَامِ أَوَّلٌ وَآخِـرُ   فَافْهَمْهُمَـا وَالـذِّهْنُ مِنْـكَ حَاضِـرُ

ذكر الناظم رَحِمَهُ اللهُ **مِنَ الإرشادِ النَّافعِ لملتمسِ العلمِ**: أنْ يطلبَ فَهْم ما يُلْقَىٰ إليه منهُ، وإذا عَسُر عليه فَهْم شيءٍ من معانِيهِ اجتهدَ في تَفَهُّمه وسأَلَ عنه؛ **لأنَّ الأقوالَ الَّتي تُـذْكَر لـكَ في العلـمِ هـي بالنِّسبة لـكَ نوعان:**

أحدُهُمَا: قَوْلٌ تَسْمَعُهُ فَتَعْلَمُه وَلَا يَخفَىٰ عَلَيْكَ.

والآخر: قَوْلٌ تَسْمَعُهُ فتجهله وَيَخفَىٰ عَلَيْكَ.

فالأوَّل إذا وصلَ إلىٰ قلبكَ استقرَّ فيه، فإنَّك إذا فَهِمْتَ معنًىٰ من معاني العلمِ ووعَاه قلبُـك وجـدَ لـه مَرْبعًا ومَحلًّا فيه، وأمَّا ما تسمعُه فتجهلُه ويخفَىٰ عليك فإنَّك تحتاج فيه إلـىٰ الاسـتفهامِ والسُّـؤال حتَّـىٰ تُدرِك معناهُ، فيستقرَّ في قلبك.

فإذا عَسُر عليكَ فَهْم شيءٍ فاستعِد تَفَهُّمَه إمَّـا بتكـرارِ النَّظـر منـكَ في سـماعِ كـلامِ مُعلِّمـكَ، أو فِـي الْتِمَاسِكَ منهُ إعادةَ بيانِ مَا سمعتَه منه ولم تفهمهُ، وإيَّاك وإهمال فَهْمَ ما لَمْ تفهمْه؛ **فإنَّ تَرْك شيءٍ سـمعتَه دونَ فَهْم يُورِثُ آفتينِ:**

الأولىٰ: ثِقَلُ الفَهْمِ؛ فإنَّك إذا تركتَ شَيْئًا وثَانِيـًا وثالثـًا تَبَلَّدَ ذِهنُكَ.

والأخرىٰ: تَفْوِيتُ العلمِ؛ فإنَّك إذا تركتَ شَيئـًا وَثَانيـًا وآخـرَ فَاتَتْـكَ أشـياءُ مـن العلـمِ لـم تُحسِـن معرفتَهَا.

مَعَ ما يقارن هاتين الآفتين من عِلَلٍ أخـرىٰ؛ كوقـوعِ الشُّـبهاتِ، وكثـرةِ الاعتراضـاتِ؛ ممَّـا يُوجِـب الاعتناء بِحُسن التَّفهُّمِ؛

فتارةً: تستعيد كلامَ مُعلِّمك ممَّا يُحفَظ صوتيًّا، فتُكرِّره حَتَّىٰ يَقَرَّ المعنىٰ في قلبك.

وتارةً: تُذاكِر به صاحبـًا لك، فرُبَّما يذكرُ لكَ مَا عَزُبَ عنه فَهْمُك.



وتارةً: تَستعيدُ - بأَدَبٍ - من مُعَلِّمِكَ فَهْمَ ما لَمْ تَفْهمْه، ولا تتركْ شيئًا تسمعُه من العلمِ دون فَهْمٍ؛ لِمَا يُورثُه من نَقْصٍ سبقَ ذِكْرُه وبيانُ وجهِه.

ثمَّ ذكر النَّاظِمُ أنَّ كلَّ سؤالٍ يتعلَّق به جوابٌ:

فمُراده بـ(القَوْلِ): السُّؤالُ؛ بِدلالة مُقابلتِهِ بالجواب، وذَٰلِكَ فِي قولِهِ:

وَكُـــلُّ قَـــوْلٍ فَلَـــهُ جَـــوَابُ   يَجْمَعُـــهُ البَاطِـــلُ وَالصَّـــوَابُ

فالجوابُ له جهتَانِ:

إحداهما: الجَوَابُ الصَّحيحُ؛ المَدْلُولُ عَلَيْهِ بقولِه: (الصَّوَابُ).

والأخرىٰ: الجَوَابُ الخَطَأُ؛ المَدْلُولُ عَلَيْهِ بقولِه: (البَاطِلُ).

وتحقيقُ الحُكمِ علىٰ الجوابِ بإحدَىٰ الجهتينِ مُناطٌ بموافقةِ الأدلَّـةِ ومتابعَـةِ الأَجِلَّـةِ، فرعايـة هٰـذَا يُوقف العبد علىٰ جَلِيَّةِ الأَمرِ فِي الحُكمِ عَلَىٰ جوابٍ بأنَّه خطأٌ أَوْ صوابٌ، لَا بمجرَّد الذَّوق، أوِ الوَجْدِ، أو الخَاطِرِ، أو ما تَعَارَفَ عليه النَّاس أو مَا اعتادُوه في بلدٍ.

فمثلُ هٰذِهِ المعاييرِ ليستْ ميزانًا صحيحًا فِي الحُكمِ عَلَىٰ شَيءٍ منَ الأجوبةِ بأَنَّـهُ جـوابٌ صَـحِيحٌ أَو جوابٌ خطأٌ.

وهٰذِهِ القاعدةُ تختَصُّ ببعضِ الكلامِ في العلمِ، وهوَ: مَا وقعَ جَوابـًا علَىٰ سؤالٍ.

ثمَّ ذكر قاعدةً عامَّةً فيه، فقال:

وَلِلْكَـــــــلَامِ أَوَّلٌ وَآخِـــــــرُ   فَافْهَمْهُمَـا وَالـذِّهْنُ مِنْـكَ حَاضِـرُ

والمقصودُ: أنَّ كلَّ كلامٍ فَلَهُ مبتدأٌ وله مُنتهًىٰ، وله سِباقٌ وله لِحَاقٌ، وله إفرادٌ وله سِياقٌ.

فكمالُ فَهْمِه يكونُ برعاية مواقعه، فتعتبر أوَّل الكـلامِ وآخـرَه، وسِـبَاقَه ولِحاقـه، وإفـرادَه وسـياقَه؛ فيُوقفك ذَٰلِكَ علىٰ الفهمِ الصَّحيح له، فإن أخذتَ أَوَّله وتركتَ آخره، أو أخذت سِـباقَهُ وتركـتَ لحاقـه، أو اكتفيتَ بمفردٍ دونَ النَّظر في تركيبِ سياقٍ؛ أوقعَك ذَٰلِكَ في رَدِّ كلامٍ حقٍّ، ودَفَعك إلىٰ الـزُّور والباطـل في العلمِ، وهي حال كثيرٍ من النَّاس الَّذين يُبادرونَ إلىٰ تزييفِ حقٍّ لأنَّهم ينظـرونَ إلـىٰ أوَّل الكـلامِ دونَ آخرِه، أوْ: ينظرونَ إلىٰ سِباقِهِ دون لِحاقِه، أو ينظرونَ إلىٰ إفرادِه دونَ تركيـبِ سِـياقِه فيقعُـون فِـي الغلـط علىٰ العلم وأهلِهِ.



فمَنْ أرادَ أن يَسْلَمَ لهُ دينه وعِلمُه وعقلُه لاحظ هٰذَا في مواقِعِه من الكلامِ، فإنَّـه يوقفُـهُ علـىٰ المعـانِي الصَّحيحة ويدفَع عنهُ دعْوَىٰ الزُّور الَّتي يدَّعيها مَنْ يدَّعيها علىٰ المتكلِّمين في العلم.

ولا يمكن حصولُ تلكَ الحالِ إلَّا بأن تكون حاضرَ الذِّهن حينَ ذَٰلِكَ:

والمراد بـ (حضورِ الذِّهنِ): إقبالُ القَلْبِ عَلَىٰ المَعْنَىٰ المُرَادْ فَهْمُهُ.

فإنَّك إذا زاغَ ذِهنك مُدَّةً وحضر مُدَّةً أوقعَكَ في الغَلَطِ.

وأذكر من وقائع الأحوالِ: أنَّ أحدًا نَسَب إليَّ أنِّي أقول: إنَّ (هُو) من أسماء اللهِ!، وذكر أنَّني قـرَّرتُ هٰذَا في جامعِ الرَّاجِحي بـ (شُبرا)، وأنَّه كان أحدَ الحاضرينَ، فلمَّـا ذُكِـرَت هٰـذِهِ الـدَّعوىٰ لـي ضـحكتُ وذكرتُ هٰذِهِ الأبياتَ.

فإنَّني كنت أُقرِّر الفرقَ بين الاسمِ المفرد للهِ، والاسم المضافِ؛

فالاسمُ المفردُ: هو الَّذِي يأتِي واحدًا؛ مثلُ: (الله).

والاسمُ المضافُ: هو الَّذي يأتِي مجموعًا مع غيره؛ مثل: (ربِّ العالمينَ، ومالك الملكِ).

وذكرتُ أنَّ ابنَ القيِّم ذكرَ أنَّ الاسمَ المضافَ لا يُفصَلُ أحدُ طرفيـهِ عـن الآخـرِ بمنزلـةِ عَـدم فَصْـل حروف الاسمِ المفردِ، فلا يصحُّ أن تقولَ في اسمِ (القابضِ الباسطِ): أنَّ من أسماء اللهِ (القَـابضُ)، أَوْ: أنَّ من أسماء الله (البَاسطُ)؛ بلِ الاسم حينئذٍ هو (القابضُ الباسطُ)، فيمتَنِعَ الفصلُ بينهُمَا كمَا يمتنعُ الفصـلُ بين حروفِ اسم (الله)، فلا تقول: (ا) اسمٌ، ولا (اللَّام) اسمٌ، ولا (هـُ) اسمٌ، فسمع هوَ: (هـُ)اسمٌ، فقالَ: إنَّ فلانًا يذكر أنَّ (هو) من أسماءِ اللهِ؛ لأنَّ ذهنَه حينئذٍ لمْ يكنْ حاضِـرًا، وإنَّمَـا كـان شـاردًا، فسـمِع هٰـذِهِ الكلمة فظنَّ أنَّ فيها تقريرًا لكونِ هٰذِهِ الكلمة (هُو) من أسماءِ الله ﷻ.

والعاقلُ يلتمس العذرَ للمتعلِّمينَ، فإنَّ هٰذَا ممَّا لا يُسـتغرَب منـه؛ بـل لا يُسـتغرَبُ ممَّـنْ يريـدُ بـكَ السُّوءَ، فإنَّ هٰذَا أَمْرٌ جُبِلَتْ عليـه خَلِيقَـةُ الإنسـانِ، فـإنَّ النَّـاس يتنافسـونَ ويتَصـارَعُونَ ويريـدُونَ الجَـاهَ والرِّئَاسةَ والزَّعامةَ ويبتغِي بعضُهُم فِي بعضٍ خطأَهُ لإِزْلَالِه وإنزالِه عن رُتبةٍ بلغها.

فالعاقلُ إذا رأَىٰ هٰذَا في النَّاسَ عَامَلَهُم بمَا أَمَرهُ الله ﷻ وعَقَلَ أنَّ هٰذِهِ حالٌ بشـريَّةٌ، فَـالمتَرفِّعونَ عـنْ البشرية، المُزَكّون أنفسهم بما يُطَهرها لا يلتفتون إلىٰ مثل هذا ويرون أن صدور هذا من المتعلمين زَلّات ينبغِي إفهامُهم فيهَا القولُ الصَّوابُ.



والشَّاهدُ منَ الحِكَايةِ: أَنَّ مَا أَرشَدَ إِليهِ مِن كوْنِ حصولِ تِلكَ الحَالِ لَا يُمكنُ إلَّا مع حضور الـذِّهنِ، وأمَّا معَ شُرُودِه فإنَّه لا يحصُل للمرءِ ذَٰلِكَ.



قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللهُ:

لَا تَـدْفَعِ القَـوْلَ وَلَا تَـرُدَّهُ حَتَّـىٰ يُؤَدِّيـكَ إِلَـىٰ مَـا بَعْـدَهُ

فَرُبَّمَـا أَعْيَـا ذَوِي الفَضَـائِلِ جَـوَابُ مَـا يُلْقَـىٰ مِـنَ المَسَـائِلِ

فَيُمْسِـكُوا بِالصَّـمْتِ عَـنْ جَوَابِـهِ عِنْـدَ اعْتِـرَاضِ الشَّـكِّ فِـي صَـوَابِهِ

لَمَّا ذكر النَّاظِمُ في البيت السَّابق ما يُعينُ علىٰ فَهْمِ الكلام حَذَّر من آفةٍ تعرِض لمَنْ استغلَقَ عليهِ فَهْم شيءٍ منه، وهيَ المبادرةُ إلىٰ دَفْعِه وردِّه، فمنَ النَّاس مَنْ إذا استغلَقَ عليه فَهْمُ شيءٍ لـم يُدركْـه بـادرَ إلـىٰ رَدِّه ودَفْعِه.

والواقِي من السُّقوطِ في هٰذِهِ الآفةِ: هو ملاحظة ما يأتي بعد ذٰلِكَ الكلامِ، فرُبَّمَا سمِعتَ كلامًا عامًّا يفتقرُ إلىٰ التَّخصِيصِ، أو كلامًا مُطلقًا يحتاجُ إلىٰ التَّقْييد فبادرتَ إلىٰ إنكارِه قبلَ ظهورِ تَمَامِه، وهوَ المُعينُ عَلَىٰ فَهْمِه وإفهامِه، كقَولِ الله تعالَىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ [الماعون]، فهٰذِهِ الآيةُ لا يتمُّ معناها إلَّا بقَرْنِها بالآيةِ الَّتي بعدَها، في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون].

فمَنْ يُقرِّر معنَىٰ الويلِ للمصلِّين بإطلاقٍ مُبطِلٌ، ومعنىٰ يُقرِّر معنًىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ إذا كانُوا علَىٰ الحالِ الَّتي ذكرهَا الله ﷻ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون] كان مُحِقًّا في ما قرَّره.

فإنْ أعيَا السَّامعَ فَهْمُ كلامٍ وتطلَّعت نَفْسُه إلىٰ رَدِّه ودَفْعِه وإبطالِه حَسُنَ به أن يَرُدَّ بعضَه علىٰ بعضٍ، قبل الهجومِ علىٰ إنكارِه وتزييفِه اقتداءً بمسالكِ أهل العلم في مَا هُم عليهِ من أجوبةِ مسائلِ الخلقِ في ما يحتاجون إليه من الحقِّ.

فإنَّ أهلَ العلمِ لا يُبَادِرُونَ بجوابِ استفتاءاتِ المُسْتَفْتِيْنَ حتىٰ يُتِمَّ المستفتِي كلامَه، كمَا قالَ:

فَرُبَّمَـا أَعْيَـا ذَوِي الفَضَـائِلِ جَـوَابُ مَـا يُلْقَـىٰ مِـنَ المَسَـائِلِ

فَيُمْسِـكُوا بِالصَّـمْتِ عَـنْ جَوَابِـهِ عِنْـدَ اعْتِـرَاضِ الشَّـكِّ فِـي صَـوَابِهِ

فمِنْ حالِ كُمَّلِ المفتِينَ إذَا عُرِضَتْ عليهمْ فتْوَىٰ أنَّهم لا يُبادرُونَ إلَىٰ الجوابِ فيهَا حتَّىٰ يتبيَّن لهم تمامُ القولِ من المستفتِي، ثمَّ يُجيبونَه، فتلكَ الحالُ الَّتي تصلح بها خَلْقُ النَّاس في الفتْوَىٰ هيَ الحالُ الَّتي



تصلحُ بهَا حالُهُم في فَهْمِ العلمِ، فَلَا يكمُل لهمُ الفهمُ ولا يَتِمُّ لهمْ إدراك معانيهِ إلَّا باستِتْمَامِ مبانيهِ، فإذا صارت وافيةً تبيَّن لهمُ المعنَىٰ.



قَالَ النَّاظِمُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَلَوْ يَكُونُ القَوْلُ عِنْدَ النَّاسِ ... مِنْ فِضَّةٍ بَيْضَا بِلَا الْتِبَاسِ
إِذاً لَكَانَ الصَّمْتُ مِنْ عَيْنِ الذَّهَبْ ... فَافْهَمْ هَدَاكَ اللهُ آدَابَ الطَّلَبْ

ذكر النَّاظِمُ في هٰذَين البَيْتَيْنِ ما يُقَوّي وازعَ الصَّمْت في النَّفْس، ويدعُوهَا إلىٰ الإمساكِ عن كثيرٍ من القول، وهمَا معنَىٰ حِكمةٍ سَيَّارةٍ: (إِذَا كَانَ الكَلَامُ منْ فضَّةٍ؛ فَالسُّكُوتُ مِنْ ذَهَبٍ).

وَالكلام الَّذي يكون فضَّةً هوَ: ما لا يتبيَّنُ نَفْعُه من ضَرَرِه، أمَّا بَيِّنُ النَّفْعِ فإنَّه من خالِصِ الذَّهب، كَمَا أنَّ بَيِّنَ الضَّرَر شواظٌ من اللَّهبِ.

فالكلام المُرادُ إخراجُه له ثلاثةُ أقسامٍ:

أحدُها: كَلَامٌ بَيِّنُ النَّفْعِ؛ وَهٰذَا مِنْ خَالِصِ الذَّهَبِ.

وثانِيهَا: كَلَامٌ بَيِّنُ الضَّرَرِ؛ وهٰذَا شواظٌ من اللَّهَبِ.

وثالثُها: كَلَامٌ لا يتبيَّنُ نَفْعُه من ضَرَرِه؛ فهو الَّذي يُعْدَل بالفضَّة، ويكون السُّكوتُ حينئذٍ من ذهبٍ، فإنَّ العبد مأمورٌ بقولِ الخيرِ أوِ الصَّمت عمَّا عداهُ.

والحِكمة المذكورةُ: (إِذَا كَانَ الكَلَامُ منْ فضَّةٍ؛ فَالسُّكُوتُ مِنْ ذَهَبٍ)؛ مأثورةٌ عن جماعةٍ منَ القدمَاءِ، منهم: نَبِيُّ الله سُلَيمَانُ عَليه الصَّلاة والسَّلام، ولُقْمَانُ الحكيمُ - الرَّجل الصَّالح -.

ثمَّ ختم النَّاظم بالتَّأكيد علىٰ فَهْم ما ذَكَر في هٰذِهِ المنظومةِ من الآدابِ فقالَ: (فَافْهَمْ هَدَاكَ اللهُ آدَابَ الطَّلَبْ)؛ داعياً إلىٰ حُسْن تَفَهُّمِ هٰذِهِ الآدابِ، فإنَّ فَهْمَهَا يدعُو إِلَىٰ العملِ بهَا، كماَ أنَّ عدمَ فَهْمِهَا يحولُ دونَ العملِ بهَا، وقَرَنَ الأمر بالدُّعاء ترغيبًا فيها، وتحبيبًا لها إلَىٰ النُّفوس ليحرصُوا عليهَا ويمتثلُوا مُقتضَاهَا.



قالَ المُصَنِّفُ وفَّقَـهُ اللهُ:

أَبْيَاتُهَـــا مَـــعَ الزِّيَـــادَاتِ الَّتِـــي حَبَّرْتُهَـــا بِــــأَرْبَعِينَ عُـــدَّتِ

خَتمَ جَامعُ هٰذِهِ النُّبذة بِهٰذَا البيتِ من زياداتِه، المُبيِّنِ عدَدَ أبياتِ هٰذِهِ المنظومةِ، وأنَّها أرْبعون بيتًا؛ لِي منهَا خَمْسَةٌ؛ أربعةٌ فِي أوَّلِها، وواحدٌ فِي آخرهَا، وما بقيَ فهوَ أصلُ المنظومةِ.

ومعنىٰ قولِه: (حَبَّرْتُهَا)؛ أَيْ: زَيَّنْتُهَا بِزِيادَةِ الحِبرِ فيهَا، فإنَّ التَّحبيرَ هوَ التَّزيينُ.

وَمِن تَزْيينِ الخطِّ: تسويدُ حِبْرِه.

فإنَّ الحبرَ إذَا كَانَ قَوِيًّا بَانَ المكتوبُ وَظَهَرَ، كَمَا يبدُو ذٰلِكَ جليًّا إذا قَارَنتَ الأبياتَ الَّتي زيدتْ ببقيَّةِ الأبياتِ، وهي مُحَبَّرَةٌ فِي خَطِّهَا، وغيرُها منْ أصلِ المنظومةِ مُحَبَّرَةٌ فِي معانِيها النَّافعة.

فهٰذِهِ المنظومةُ هي من أحسنِ ما نُظِمَ فِي آدابِ الطَّلَب ممَّا هو وجيزٌ؛ كما ذكره أَبُو عُمَرَ بْنِ عَبْدِ البَرِّ فِي «جَامِعِ بَيَانِ العِلْمِ وَفَضْلِهِ».

فحقيقٌ بنَا جميعًا أن نحرصَ علىٰ حِفْظ هٰذِهِ المنظومةِ أو تكرارهَا حتَّىٰ ترسخَ معَانيهَا فِي نفُوسِنَا، وأن نُحسِن تَفَهُّم تلكَ الحقَائقِ ثمَّ نمتثلَهَا بالعملِ.

فإنَّ بابَ الآداب ممَّا وقعَ فيهِ العَجب العُجاب، فَضَيَّعهُ كثيرٌ منَ المنتسبينَ إلَىٰ طَلَبِ العلمِ فحُرِمُوا العلمَ بسببِ تضييعِ الأدبِ، فمَنْ ضَيَّع الأدبَ حُرِمَ العلمَ، ومَنْ التزمَ الأَدَب فهوَ جديرٌ بأنْ يكونَ من أهلِ العلمِ.

وبهٰذَا البيانِ يتمُّ بيانُ معانِي هٰذِهِ المنظومةِ علىٰ مَا يوافقُ ويناسبُ المقَامَ.

وكنت أظن شيئًا ويُقَدّر الله غيره، فقد كنت أظن أنّا نأتي عليها في وقت وجيز، فامتد الوقت إلىٰ هذه الساعة، والآداب العشرة فيها معانٍ مهمة ننتفع بها جميعًا، فنؤجل قراءتها إلىٰ وقت آخر بإذن الله ﷻ.

لكن لنجعل الدرس القادم.. ما هو الدرس القادم في الجدول؟

الطالب: العروة

فضيلة الشيخ: الورقات ولا العروة.. درسين؟

إذاً نجعله إن شاء الله تعالىٰ الدرس القادم مع العروة، «الآداب العشرة» مع «العروة الوثقىٰ».



وأُنَبّه هنا إلىٰ أمور:

أحدها: أن الأصل أن نجمع هذه المتون منثوراً ومنظوماً في مجموع، وتأخر نجاز طَبْعه فاستعينوا بنُسَخِكم وما تُحصّلونه حتىٰ يُيسر الله طِبْعه، ونَوزّعه عليكم بإذن الله تعالىٰ.

وثانيها: أن هذا البرنامج «أصول العلم» يقع في أربعة مستويات، هذا ثانيها، وإنما يصلح الثاني لمَنْ؟ لمَنْ حضر الأول سابقاً أو يحضره حالاً، فمَنْ تقدم حضوره سابقاً فذلك خير، فيحضر معنا الثاني، ومَنْ لم يتقدم حضوره للأول سابقاً فهو مُلزَم عندي بأن يحضر الأول، لأن من صِدْق النُّصح له: أن أنصحه بما هو أشد نَفْعاً له، فالمستوىٰ الأول في مَنْ يبتدئ هو آكد؛ **وله حالان:**

الحال الأولىٰ: أن لا يستطيع سوىٰ حضوره، فيكتفي بحضوره.

والحال الثانية: أن يستطيع أن يحضر الأول والثاني، فمأذون له أن يحضر الثاني زيادة في الغنيمة، لكن الأصل أن يكون ملتزماً بالأول..

فالذي لم يحضر الأول ولن يحضر الأول لا آذن له بالحضور نصيحةً له، فإن العلم نصيحة، وإنما أُبدي هذا الكلام نُصحاً، والمتكفل بنجاح نصيحتي هو الله ﷻ، فأنا أنصح لك، وأنت إن شئت غششت نفسك وإن شئت نصحت لها، فتمام نُصحي لك بأن تحرص علىٰ المستوىٰ الأول إن كنت لم تحضره في ما سبق.

فإن وسعك أن تحضره مع حضور الثاني فهذا خير علىٰ خير، وإن عَسُر عليك فالزم الأول ثم سيأتي يوم تقرأ معنا فيه بقية هذه المستويات.

فالأصل في خطة هذا البرنامج أنه أربعة مستويات، وقد قضينا الأول، وهذه السنة (الثاني)، ثم السنة المقبلة (الثالث)، ثم السنة التي تليها (الرابع) بإذن الله.

فإذا فرغنا من الرابع رجعنا إلىٰ الأول بتدريسي، وفي الحال التي لا أكون أُدَرِّسه فيها يُدَرِّسه يوم الثلاثاء ثُلّة من المشايخ، فاحرصوا علىٰ ما ينفعكم.

أسأل الله ﷻ أن يرزقنا جميعاً علماً نافعاً، وعملاً صالحاً، وأن يُلهمنا رُشدنا وأن يقينا شر أنفسنا.

والحمد لله أولاً وآخرًا.

